من:

كرامات

الشيخ أحمد بنبه

خديم رسول الله صلى الله عليه وسلم

ويليه:

بعض من كرامات مريده/

الشيخ سيد أحمد بن اسمه الديماني

إِنِّي بِحَمْدِ اللهِ أَشْعَرِيُّ عَقِيدَةً وَالْفِقْهُ مَالِكِيُّ
طَرِيقَةُ الْخَدِيمُ ذِي النَّهْجِ الْقَوِيمْ طَرِيقَتِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمْ
وَإِنَّنِي خَدِيمُ خَادِمِ الرَّسُولْ وَتِلْكَ ذِمَّةٌ بِهَا أَرْجُو الْوُصُولْ

صلى الله على سيد المرسلين ورضي عن آله وأمته أجمعين

تأليف: العلامة الدكتور الشيخ محمد بن أحمد مسكه اليعقوبي ثم البركي الموريتاني

أطال الله إبقاءه وبلغه مقصوده
ومراده آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العلمين إنك حميد مجيد.

يقول كاتب هذه المجموعة العبد الحقير/ محمد بن أحمد مسكه بن العتيق اليعقوبي ثم البركي: إن الله تعلى منَّ على هذه الأمة المحمدية بأن جعلها خير الأمم وجعلها وسطا عدولا وجعلها شاهدة على سائر الأمم، واختار نبيها محمدا صلى الله عليه وسلم عن علم، وفضله على سائر الرسل الذين فضلهم على سائر المخلوقات، واتخذ من أمته عبادا خلصاء أكرمهم بالعلم واختصهم بالولاية، فحملوا نوره الشريف وأقاموا ملته الطاهرة بين العباد، وجاهدوا في الله حق جهاده، لا تأخذهم لومة لائم ولا يخافون أحدا إلا ربهم ولا يبتغون إلا وجهه الكريم.

وقد من الله تعلى على غرب البلاد الإسلامية بظهور أحد هؤلاء الأفذاذ من أولياء الله تعلى الذين جمعوا بين علم الشريعة والحقيقة، وبين العلم والعمل، وبين جهاد النفس وجهاد الكفار، وبين الزهد الكامل والإنفاق الواسع، وبين أعلى درجات الولاية والتمسك التام بآداب الشريعة المطهرة...

وهذا الرجل الموصوف بهذه الصفات الفخمة، وإن كانت دون ما هو عليه في الحقيقة، هو الشيخ أحمد بنبه مجدد القرن الرابع عشر، الذي ظهر في السينغال.

وقد من الله تعلى علي بصحبة مريدين من العلماء الموريتانيين، الذين سلكوا على يده مثل العلامة الشاعر الولي الزاهد سيد أحمد بن اسمه الديماني، ومثل العلامة الشاعر الولي القاضي محمد بن أدشاغ اعمر اليعقوبي وغيرهما.

فلم أزل أسمع منهم حكاية كراماته، ومجاهداته، وإنفاقه، وتمسكه بآداب الشريعة، وأخلاقه الفاضلة. ولم أقيد شيئا من ذلك حتى توفي الشيخان المذكوران وتوفي غيرهما ممن كان قد اتصل به. فرأيت أن أقيد بعض تلك الكرامات قبل أن تندثر بمرور الزمن وموت رواتها.

وكان في نيتي أن أتصل بأكبر عدد من القبائل التي كان له منها مريدون، ولكن الأحوال الخاصة لم تسمح بذلك، فاقتصرت من ذلك على ما أمكنني الوصول إليه، ولم أتعرض لكراماته التي دونها مريدوه وأبناؤه في الكتب المنشورة إلا لماما، وربما ذكرت كرامات لبعض مريديه لأنهم نالوا ما نالوا بواسطته. وقد قسمت المجموع إلى مقدمة في إثبات كرامات الأولياء، وباب في حياته، وباب في شهادة أجلاء عصره ومشايخه له بالفضل والولاية، وباب في كراماته.

وأسأل الله تعلى أن ييسر هذا العمل ويجعله خالصا لوجهه الكريم، وإحياء لآثار عباده الصالحين الذين في إحياء آثارهم إحياء ونصرة لدينه القويم، وأن ينفع به المسلمين، ويقوي به الدين إنه سميع مجيب, والحمد لله رب العلمين هو حسبي ونعم الوكيل.

مقدمة: في ثبوت كرامات الأولياء

اعلم وفقنا الله تعلى وإياك لسلوك صراطه المستقيم أن الله جل ذكره وتعلى شأنه هو الخالق لكل شيء في الوجود سواء في ذلك الأجرام والأعراض والأفعال الصادرة عن الأجرام، فلا حركة ولا سكون ولا فعل ولا مشيئة في الوجود إلا من خلقه سواء صدرت تلك الأفعال من العقلاء ذوي الإرادة أو من العجماوات أو كانت تفاعلات كيماوية بين عناصر مختلفة، فالكل دقيقه وجليله من فعله عز وجل بلا واسطة وبلا معين.

قال تعلى: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَّشَاءَ اللّهُ)

وقال: (وَاللّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)

وقال: (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

وقال: (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ)

فالماء الذي نرفعه للشرب إنما رفعناه بإذنه تبارك وتعلى وخلقه، ونقع غليلنا إنما هو من فعله تعلى.

والنار التي نوقد في الحطب لنغلي عليها الماء لنصنع الشاي إنما أوقدناها بإذنه تعلى وبخلقه المباشر، ثم هي لم تعمل الإحراق ولم تصنع التدفئة، لا بطبعها ولا بقوة مودعة فيها، بل الله عز وجل هو الذي خلق الإحراق والتدفئة عند مماسة النار للجسم المحروق أو المدفإ. خلق تعلى ذلك بلا واسطة طبيعة النار ولا معونة الأفعال الصادرة منا على سبيل المجاز.

وليس وضع النار وغيرها من الأشياء التي في الطبيعة، مع ذلك عبثا، بل لرحمة بالغة من الله تعلى لعباده، أجرى لهم هذه السنن التي يستوي فيها البر والفاجر والعاقل والأعجم، فكل من أراد أن يدفئ شيئا يوقد النار وعند ذلك يمن الله تعلى عليه بإيجاد التدفئة وخلقها بقدرته الكاملة.

ومن أراد أن ينقع غليله ويطفئ ظمأه، تناول شرابا باردا لذيذا، فيخلق الله تعلى حينئذ فيه إطفاء الظمإ ونقع الغليل، لا بفعل الظمئان الضعيف ولا بطبيعة الشراب، ولكن بمن ذي المن والطول تبارك وتعلى.

وهذا هو معنى العبارة التي يقولها أهل السنة، حتى صارت جارية على ألسنة العامة "عندها لا بها" أي أن النتائج الناتجة عن أسباب ظاهرة من شفاء مرض أو نقع ظمإ أو قطع بسكين أو حرق بنار، إنما تقع عند قيامنا بهذه الأسباب الظاهرة، ولكنها لا تقع بسببها، وبعبارة أخرى، فهي تقع مقارنة لها، وليست ناتجة عن فعلها ولا تأثيرها. ومع ذلك فنحن مأمورون بمراقبة هذه العلل الظاهرة والجريان معها، فيجب علينا إيقاد النار لطبخ طعامنا وتدفئة الماء للوضوء به، إذا كنا نعلم أن الوضوء بالماء البارد يؤدي إلى العطب. وأمرنا تعلى بإعداد القوة للجهاد مع علمنا العلم الجازم أن تلك المسببات التي نبحث عنها، إنما هي خلق الله تعلى وأمره وتقديره.

هذا هو اعتقاد أهل السنة. وهو الذي نطق به الكتاب والسنة وأثبته الأئمة.

وقد سار على خلاف هذا المنهاج طوائف من أهل الضلال مثل: المعتزلة، القدرية؛ فأثبتوا الخلق لغير الله، سبحانه وتعلى أن يكون لغيره خلق أو أمر. ومثل: الجبرية، تعللوا بالقدر لإسقاط التكاليف.

وإذا تأملتَ ما مضى من كونه تعلى هو الخالق المباشر لكل شيء كما قال تعلى: (اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)، وعلمتَ أن لا ارتباط حقيقة بين أي علة مادية ومعلولها، علمتَ أن الأمر الجاري على العادة ومألوف الناس ليس أقل غرابة، في حقيقة الأمر، ولا إعجازا، من الأمر الخارق للعادة، فالكل خلقه وأمره، وبتقديره وحكمته، وإذا كان إحراق النار لما مسته أمرا مألوفا عندنا، وكان عدم إحراق النار لشيء مسته مع توفر الظروف الملائمة أمرا مستغربا عندنا، فعلينا أن نتذكر الإحراق وعدم الإحراق إنما هما فعله عز وجل المباشر، ولا دخل للنار في ذلك الأمر إطلاقا، سوى أنها علامة نصبها الله تعلى لنا على فعله تعلى لطفا بنا ورحمة منه ومنة، فله الحمد والشكر على ذلك.

وإذا تحققت ما مضى، أدركت أمرين بالغي الأهمية:

أولهما: إمكان خرق العادة على يد أولياء الله تعلى كرامة من الله لهم.

والأمر الثاني: أن هذه الكرامات التي تظهر على يد أولياء الله تعلى لا تعني أنهم يخلقون شيئا أو يضرون أو ينفعون على الإطلاق، بل الله عز وجل هو الخالق الرازق الضار النافع، وإنما وجه الإكرام في الكرامة، هو أن الله تعلى أكرم وليه بأن خرق له العادة التي كانت جارية، فأحل خلقا من خلقه تعلى محل خلق آخر من خلقه.

والكرامة هي أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوءة ولا هو مقدمة لها، يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعته، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح، علم بها أو لم يعلم.

فالكرامة تمتاز عن المعجزة بعدم الاقتران بدعوى النبوءة، وتمتاز بأنها ليست مقدمة للمعجزة، عن الإرهاص وهو ما يظهر على يد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبل النبوءة مثل: تظليل الغمام لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وتمتاز أيضا بكونها إنما تظهر على يد الصالحين ذوي الاعتقاد الصحيح، تمتاز بذلك عن ما يظهر على أيدي السحرة والمشعوذين، وما يظهر على يد سائر الكفرة من النصارى واليهود لعنهم الله، وعلى يد غيرهم من أهل الكفر والضلال، فليست الخوارق التي تظهر على أيديهم كرامة، بل هي استدراج ومَكْرٌ بهم من حيث لا يشعرون، على قلة وقوعها منهم والعياذ بالله تعلى من حالهم.

وقد ثبتت الكرامة للأولياء بالكتاب والسنة وإجماع أهل الحق.

أما الكتاب فقد أخبرنا تعلى بما وقع لمريم عليها السلام من الكرامات الباهرة. فأخبر تعلى أنها كانت ترزق من حيث لا ينتظر لها رزق، حتى كان زكرياء عليه السلام، وهو كافلها

يتعجب من ذلك، قال تعلى في سورة آل عمران في الحديث عن مريم عليها السلام: (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاءُ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّاءُ الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37)).

ولها كرامة أخرى، وأي كرامة، في تساقط رطب النخلة، مع أنها امرأة في حالة نفاس، والنخلة قوية وصلبة، لا يتأتى هز جذعها لأقوى الرجال. قال تعلى في سورة مريم: (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا (23) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تَسَّاقَطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً).

ومن كراماتها خطاب الملائكة لها. قال تعالى في سورة مريم: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا (17) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيًّا (21)).

وقال تعلى: (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (42)).

وقد حكى الله تعلى عن الخضر في سورة الكهف ما حكى من إخباره عن الغلام الذي قَتَلَ بأنه خشي أن يُرْهِقَ أبويه طغيانا وكفرا وأنه لم يفعل ما فعل بأمره.

وأخبر عن صاحب سليمان عليه السلام الذي عنده علم من الكتاب أنه أتى بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه.

وذكر خبر الفتية أصحاب الكهف الذين لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا.

وأما السنة فقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم بقصص بعض الأولين وكراماتهم، مثل قصة الثلاثة أصحاب الغار، وقصة الأبرص والأقرع والأعمى وقصة جريج صاحب الصومعة، وغيرها من الخوارق التي وقعت لعباد الله الصالحين ممن كانوا قبلنا من الأمم، وستأتي هذه القصص معزوة إلى مخرجيها في هذا الفصل إن شاء الله تعلى.

وأما إجماع أهل الحق فنذكر من نقولهم ما تعلم به أن إثبات الكرامات للأولياء هو مذهب أهل السنة سلفا وخلفا.

قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم في كتاب البر والصلة والأدب، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها، بعد حديثه عن الفوائد المأخوذة من حديث جريج ما نصه: ومنها إثبات كرامات الأولياء وهو مذهب أهل السنة خلافا للمعتزلة وإن الكرامات قد تكون بخوارق العادات على جميع أنواعها، ومنعه بعضهم وادعى أنها تختص بمثل إجابة دعاء ونحوه، وهذا غلط من قائله وإنكار للحس بل الصواب جريانها بقلب الأعيان وإحضار الشيء من العدم ونحوه.

وقال الإمام المقري في إضاءة الدجنة:

وَلا تُصِخْ لِمَنْ أَبَى الْكَرَامَهْ لِلأَوْلِيَاءِ وَاجْتَنِبْ مَرَامَهْ

وقال العلامة المختار ولد بونا الجكني الشنقيطي في "وسيلة السعادة":

كَرَامَةُ الْوَلِيِّ حَقٌّ وَظَهَرْ مِنْهَا كَثِيرٌ كَرِسَالَةِ عُمَرْ
لِنِيلِ مِصْرَ وَسَمَاعِ سَارِيَهْ كَلامَهُ مِنَ الْبِلادِ النَّائِيَهْ

وسيتأتي إن شاء الله الكرامتان المنسوبتان هنا لعمر.

وقال العلامة اللقاني في جوهرته:

وَأَثْبِتَنْ لِلأَوْلِيَا الْكَرَامَهْ وَمَنْ نَفَاهَا فَانْبُذَنْ كَلامَهْ

وقال الإمام النسفي: خرق العادة على سبيل الكرامة جائز عند أهل السنة.هـ.

ومثل هذا أكثر من أن يحصى في المؤلفات التي ألفها العلماء في بيان معتقد أهل السنة.

وسنورد إن شاء الله تعلى من الكرامات المروية في الأحاديث الصحيحة ما يكفي في إثبات الكرامات.

وكما تظهر على يد الأولياء الكرامات في حياتهم، فكذلك تظهر على أيديهم الكرامات بعد وفاتهم. وسيأتي مزيد من الكلام على ذلك إن شاء الله تعلى.

وقبل أن أورد الأدلة على ثبوت كرامات الأولياء، أود أن أقول كلمة عن الروح الاعتزالية الديكارتية الإلحادية السائدة في هذا العصر. وهي روح متحكمة في الغالبية العظمى من المثقفين خريجي المدارس العصرية.

ذلك أن نظام المدارس والجامعات الآن بالبلاد الإسلامية يسير على خطى بلاد الكفر والإلحاد في العالم، وكثيرا ما يكون الأساتذة فيها من الكفار أنفسهم، أو ممن تخرج على أيديهم وتشبع بثقافتهم وأشْرب قلبُه حبَّهم، فكانت النتيجة لدى كثير من التلاميذ والطلاب في هذه المدارس مزيجا مشوها غريبا، من الإسلام بحكم البيئة والوراثة، ومن الشك في الدين وعدم الإيمان بالغيب، فتعادل ذلك في أفكارهم وصار إلى اعتزال خصي لا يرفض الإسلام كلية بل يأخذه بمجمله كحضارة وتاريخ وكاعتقاد أيضا. ولكنه اعتقاد يخضع لثقافة إلحادية شاكة، ولقيم خلقية أجنبية، ولمعايير أخذت من قوم آخرين.

ونتج عن ذلك كله –عند كثير من المثقفين- تضييق دائرة الإيمان بالغيب إلى أقصى حد لكي تمكن ملائمته -حسب عقولهم المكسوفة- مع العقل. كما نتج عنه أيضا كثير من الاستخفاف بالدين وبرجاله. وقد وصل بهم ذلك إلى الشك في كثير من الغيبيات الثابتة في الشرع مثل: الجن، ومثل: كرامات الأولياء وكشوفاتهم.

وإنما قلت إن اعتزالهم خصي، لأن المعتزلة إنما ضلوا عن طريق الحق لأنهم أعملوا عقولهم فيما لا مجال للعقل فيه، ثم حكموا آراءهم وجعلوها معيارا للصحة والخطإ، وردوا إليها محكم الكتاب والسنة.

فهم قد أخطأوا في جعلهم الرأي معيارا في مجال ليس للعقل الخوض فيه لأنه خارج عن دائرة نظره، ولكنهم -على كل حال- كانوا مستقلين في رأيهم أحرارا في تكفيرهم.

أما معتزلتنا اليوم، فليسوا مستقلين في رأيهم، بل يتبعون – في الرأي- ما يقوله المثقفون الأروبيون والمستشرقون منهم خاصة. فهم بذلك خصية المعتزلة.

وإذا كان هذا الاعتزال الديكارتي قد انتشر في صفوف المثقفين، فإن البلية العظمى هي كون بعض المنتسبين إلى العلم الشرعي أصابتهم عدواه.

فقد رأينا مقالة الزيات في المقارنة بين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وبين رسالة جمال عبد الناصر. وهي مقالة خرجت في مجلة الأزهر وقام ضدها العلماء في وقتها وأبرزوا نفاق صاحبها وتملقه. فقد رفع الملك فاروق – قبل خلعه - إلى سماء المدح والمجد، ثم أنحى عليه باللوم، وأخذ يمدح جمالا حتى رفعه فوق السماء بمقالته هذه.

ووجدنا بعض المنتسبين للعلم يتحدثون عن المارقين من الدين وأهل الضلال بأحاديث لينة حلوة فيها شيء من تمجيدهم والاعتذار عنهم، ويحطون من مقام أهل العلم والدين، حتى أنهم نالوا من الصحابة أحيانا، مثل هذا العالم الذي كتب سيرة الإمام زيد بن علي رضي الله عنهما. فحاول زورا وبهتانا أن يجعل أهل بيت النبوءة معتزلة، وحاول أن يرفع من غيلان وواصل بن عطاء ما وضعه الله.

ومثل: "أبو رية" الذي كتب في سب أبي هريرة رضي الله عنه وحاول أن يخدم السنة النبوية بالنيل من أبي هريرة. وقد دعا رسول الله صلى لله عليه وسلم لأبي هريرة وأمه أن يحببهما الله إلى عباده المؤمنين. قال أبو هريرة رضي الله عنه: "فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني" كما في صحيح مسلم.

فأبو رية لا يسب إلا نفسه ولا يهدم إلا أسه.

وقد وجدنا كثيرا من العلماء تصدوا لتأويل الملائكة والجن والسحر ونحو ذلك، فنجد مثل ذلك عند الشيخ محمد عبده، ونجد محمد فريد وجدي يرى أن الطير الأبابيل التي رمت أصحاب الفيل بالحجارة قد تكون عبارة عن مرض الجدري.

وهذا كله مصادمة للنصوص، وتأويل لا داعي له، لولا غلبة الهوى والانسياق مع تيار الشك والإلحاد والضعف أمام هجمات المستشرقين وسخرية المتشككين.

وليس هذا الموقف جميلا ولا نبيلا من العلماء، فإن عليهم تحبيب الدين الحق إلى الناس ولكن ذلك لا يكون إلا بطريق الحق وتصديق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وممن انساق في هذا التيار الدكتور محمد البهي، فقد ألف جزءا في تفسير سورة الجن، أتى فيه بضلال كثير، وخرق الإجماع، وكذب الأحاديث وظواهر الكتاب، وذلك كله في رأيه للذب عن الإسلام وتصفيته من شوائب الغيب والخرافات.

فمن جملة ضلالاته التي أتى بها في ذلك الجزء أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبعث إلا إلى البشر، مع انعقاد الإجماع على أنه صلى الله عليه وسلم بعث إلى الجن والإنس. وقد قال بعض العلماء: إنه صلى الله عليه وسلم بعث أيضا إلى الملائكة.

ومن هذه الضلالات أيضا أنه جعل الجن عبارة عن الملائكة، وصرف كلما في القرآن والحديث من لفظ الجن إلى البشر الذين يستترون بعقائدهم، فإن كانوا مؤمنين فهم مثل الملائكة، وإن كانوا شياطين فهم مثل إبليس.

وقال إن الإيمان بالجن: "إنما يعني الإيمان بالملائكة وليس يعني الترويج للتصورات الخيالية التي قد يطلق عليها اسم خوارق العادات... إلخ".

فهل ينكر الدكتور البهي خوارق العادات التي وردت في القرآن، أم أنه يؤولها حسب رأيه وهواه.

ولا غرو فإن معنى القرآن العظيم لا يفهمه إلا الأذكياء الموهوبون مثل الدكتور البهي! فهم الذين يعرفون مقاصده ويفسرونه حسب فهمهم الذي هو محك الصحة في رأيهم.

وهذا مذهب اعتزالي معروف قديم، ولكنه عند البهي وأمثاله أشنع وأوقح مما كان عليه عند قدماء المعتزلة.

وسيأتي في شأن الجن ما يبطل مزاعم البهي وأضرابه إن شاء الله تعلى.

وممن ركض في هذا الميدان الشيخ شلتوت حيث زعم أن التداوي بالقرآن الكريم من قبيل الدجل والخرافات، وأنكر نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان، وأنكر الدجال، كما في: "كمال الإيمان في التداوي بالقرآن" للعلامة أبي الفضل بن الصديق.

ولعل أغرب ما يمكن إيراده في هذا المجال ما ارتكبه محمد فريد وجدي في: دائرة معارف القرن العشرين مادة "عرج".

فإنه أنكر المعراج، وشق الصدر الشريف، وركوب النبي صلى الله عليه وسلم للبراق، وقال: إن ذلك كله من الأمور المستحيلة عقلا وحسا.

وزعم أن كون السماء سقفا يخالف العقل والحس معا، وهذا لفظه مع أن الله تعلى يقول: (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً).

ثم إن مفكرنا العبقري يعرج في المادة نفسها على قضية تحضير الأرواح، فيثبت أن الأرواح قادرة على الإتيان بالأزهار الندية الغضة من أقصى البلاد، وتأتي بالأشياء الثقيلة، فتمرها من خلال الحوائط على مرأى من العلماء الأروبيين.

ويقول: "إنه لا عبرة بعجزنا عن تعليل ذلك تعليلا علميا، فقد عجز علماء أوروبا أنفسهم عن تعليل نقل الأزهار والأثاث الثقيلة من الأماكن البعيدة إلى غرف التجارب، فإنهم قد رأوا ذلك رأي العين إلا أنهم لا يزالون حائرين في تعليله. وقد ذهب بعضهم إلى أن الأرواح قبل نقل تلك الأجسام تحيلها إلى هَيُولاها الأصلية، وهي على غاية من اللطافة بحيث يمكن أن تخترق بها الأهواء والحوائط على تلك الصورة، ثم تعيدها بقوتها إلى سيرتها الأولى بعد أن تحضرها، فهل يبعد بعد هذا أن يرق الجسد الإنساني ويتلطف حتى يكون ألطف من الأثير نفسه فينتقل من بلد إلى بلد ثم يعود إلى ما كان عليه بخاصة فيه أو بقدرة الحق سبحانه وتعلى؟".

ويُنْحِي المفكر العبقري باللائمة على من يتشكك في تحضير الأرواح وما تقوم به من خوارق العادات فيقول: "ثبت هذا الأمر لجمهور العلماء الذين أمضوا عشرات السنين في التجارب ودونوه في مؤلفاتهم ولا عبرة بالتكذيبات التي يبديها بعض الجامدين من الكتاب الذين لم يحضروا هذه التجارب ولا قرأوا فيها كتابا". ثم ذكر لائحة من أسماء أساتذة الكفر والضلال من الأروبيين الذين أثبتوا ذلك.

والآن فلنلتقط أنفاسنا قليلا ونقف مع هذا التفكير الأعرج المتناقض. فهذا العالم المفكر يؤمن إيمانا راسخا بقدرة الأرواح على الإتيان بالأثاثات الكثيفة من خلال الجدران ومن الأماكن البعيدة.

ثم يقبل التسليم بهذا صراحة، ولو لم يستطع تعليله عقليا ويحاول أن يعلله بإرجاعه إلى هيولى... وهي كلمة جوفاء لا تعلل شيئا ولا تقربه إلى العقل.

وهو مع ذلك يزعم أن المعراج وركوب البراق وشق الصدر الشريف مستحيلات، (سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ).

ونحن نعرف السبب في هذين الموقفين المتناقضين من مسألتين متشابهتين، فمسألة الأرواح قال بها الأساتذة الأروبيون.

وأما مسألة المعراج وشق الصدر الشريف، فإن الأروبيين ينكرونها ويسخرون منها.

ومن الغريب أيضا أن يقول إن كون السماء سقفا يخالف العقل والحس معا، وهذا غريب، لأن العقل هنا لا مدخل له، فالمسألة مسألة واقع، فإن كان كذلك قبله العقل، وإن كان بخلاف ذلك قبله العقل أيضا. إذن فما معنى قوله: "إن ذلك مستحيل عقلا؟".

وأما كونه مستحيل حسا فغير صحيح أيضا، لأن أقصى ما يمكن أن يدعيه العلماء في تجاربهم الفلكية – إن كان ما يقومون به في حقل علم الفلك يمكن أن يطلق عليه اسم التجربة- هو أنهم لم يعثروا أيضا على سقف السماء لكنهم لا يدعون ولا يمكن أن يدعوا أنهم اكتشفوا الكون بمجموعه حتى انتهى ولم يجدوا فيه السماء. فمثال من يدعي أن السماء ليست سقفا لأن العلماء الفلكيين لم يعثروا عليها، مثل من سمع أن مدينة شنقيط توجد إلى الشمال الشرقي من نواكشوط، فسار عدة أميال في ذلك الاتجاه ثم رجع وصار يؤكد أن شنقيط ليست موجودة.

ثم إنا نقول للكاتب إنا نكذب بتحضير الأرواح وقدرتها، ولا نأمن أن تكون الشياطين مكرت بهم، وقامت لهم مقام الأرواح استدراجا من الله تعلى لهم وزيادة في ضلالهم وخزيهم.

وأنا هنا لا أنصب نفسي حكما على وجدي ولا غيره من العلماء، بل قد سبق إلى ذهني أن هذا المقال مدسوس عليه، وقد يكون له، وقد يكون رجع عنه بعد ذلك؛ علم ذلك عند الله تعلى. والذي يعنينا هو أن هذا المقال ضلال مبين وخروج عن طريق الحق.

وكذلك تفسير الدكتور البهي لسورة الجن وما ادعاه فيه ضلال وزور باطل.

ومع ذلك فنحن مطمئنون والحمد لله على أمة محمد صلى الله عليه وسلم. فهي أمة محفوظة من الاجتماع على الضلال، محفوظة من الارتداد عن دينها. ولن تزال على ذلك حتى يأتي وعد الله.

والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يؤمنون – والحمد لله- بالغيب، ويؤمنون بما جاء من عند الله على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ويؤمنون بالملائكة والجن، ويصدقون بنزول سيدنا عيسى عليه الصلاة السلام في آخر الزمان، وبأن القرآن الكريم فيه شفاء ورحمة للمؤمنين، ويصدقون بمجيء المسيح الدجال والدابة، ويأجوج ومأجوج، وبطلوع الشمس من مغربها، ويصدقون بأن الله عز وجل أرسل طيرا أبابيل فرمت أصحاب الفيل بحجارة من سجيل.

ويصدقون بمعراج النبي صلى الله عليه وسلم، وبشق صدره الشريف وإخراج قلبه منه وغسله وملئه حكمة وإيمانا، وبركوبه صلى الله عليه وسلم البراق، ويصدقون بأن السماء سقف محفوظ وبأنها لا تفتح أبوابها لأهل الشقاء، ويصدقون بكل ما جاء في القرآن أو الحديث الصحيح، ويصدقون بكرامات الأولياء التي هي امتداد لمعجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما سيأتي.

وإنما يتعب الدكتور البهي ووجدي وشلتوت وأمثالهم أنفسهم ويضربون في حديد بارد "وعلى نفسها جنت براقش". فهم لن يحصلوا إلا على تزعزع ثقة المسلمين في أقوالهم وفتاويهم.

وبذلك يحرمون المسلمين من الانتفاع بعلومهم لأن الثقة بهم إذا فقدت يكون القارئ دائما منهم على حذر.

فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقبل أن أختتم هذه الكلمة أقول إن أهل السنة ليسوا أقل تمسكا بالعقل وبالواقع من المعتزلة ولا من الملاحدة الشاكين المكذبين؛ فأهل السنة يعرفون للعقل حدوده، فلا يقحمونه في ما لا مجال لدخوله فيه وهم بعد يعرفون بين ما يوجبه العقل وما يحيله وما يجيزه وبين ما يوجبه الخيال أو الوهم أو العادة أو تحيله. وقد أدى التباس ما يحيله العقل وما تحيله العادة بكثير من الناس إلى اعتبار أشياء مستحيلة عقليا لمجرد كونها غير معتادة عندهم.

وكذلك يعترف أهل السنة بما يثبته الحس وبالتالي يعترفون بما يثبته العلم الحديث ويعرفون علم يقين، لأنه لا يتصور اختلاف بين ما يثبته العلم الحديث بالحس والتجربة وما يخبر به الدين الحنيف.

ولكن حَذَار ثم حَذَار من تقديم الافتراضات العلمية والنظريات التي لم تثبت والتي لا يزال العلماء يبحثون عن صحتها أو وجود بديل لها، فحذار من تقديمها لمعارضة الدين كما لو كانت علما صحيحا وهذا ما يقع لكثير من المثقفين، وأذكر مرة أني قلت لأستاذ كان يلقي علينا درسا في كلية الاقتصاد، وقد تحدث أن أصل الإنسان قرد، فقلت له: يا أستاذ هل هذه نظرية علمية أم علم صحيح؟ فقال: إنما هي - إلى حد الآن- نظرية علمية، ولكن العلماء لم يجدوا إلى الآن نظرية خيرا منها. فقلت له: فكيف نترك خبر مولانا عن خلقه لنظرية لم تثبت، وقد يرجع عنها العلماء غدا أو بعد غد، وقد يكتشفون ما يبطلها، كما رجعوا عن نظرية النشوء والارتقاء وأبطلوها بعد أن ضل بها أهل القرن الماضي.

إن من يفعل ذلك فقد هان عليه دينه وهانت عليه نفسه وعقله حقا.

سبحان الله وتعلى عما يقولون علوا كبيرا.

(أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ).

ولنشرع الآن في إيراد جملة من كرامات الأولياء مما أخبرنا به رسول الله- صلى الله- عليه وسلم، أو روي عن أصحابه أو السلف الصالح، مقتصرين على ما في كتب الحديث المعتمدة من ذلك، وفي غالب الحال، غير محاولين للحصر، لأن أولياء الله- تعلى في هذه الأمة المحمدية المباركة أكثر من أن يحصوا، وكراماتهم أكثر وأكثر فتبارك الله- أحسن الخالقين والحمد لله رب العلمين.

ولنشرع الآن في إيراد بعض كرامات الأولياء التي أخبرنا بها النبي صلى الله- عليه وسلم، مما ورد في الصحيحين:

ذكر الخضر عليه السلام:

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء)

حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل:

روى البخاري عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، بدا لله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكا، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه، فأعطي لونا حسنا، وجلدا حسنا، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل - أو قال البقر، هو شك في ذلك أن الأبرص والأقرع: قال أحدهما الإبل، وقال الآخر البقر - فأعطي ناقة عشراء، فقال: يبارك لك فيها. وأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا، قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب، وأعطي شعرا حسنا، قال: فأي المال

أحب إليك؟ قال: البقر، قال: فأعطاه بقرة حاملا، وقال يبارك لك فيها. وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إلي بصري، فأبصر به الناس، قال: فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه شاة والدا، فأنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا واد من إبل، ولهذا واد من بقر، ولهذا واد من غنم، ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين، تقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال، بعيرا أتبلغ عليه في سفري. فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا فأعطاك الله؟ فقال: لقد ورثت لكابر عن كابر، فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، فرد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبا صيرك الله إلى ما كنت. وأتى الأعمى في صورته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، وتقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله بصري، وفقيرا فقد أغناني، فخذ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك).

حديث الثلاثة الذين تكلموا في المهد وقصة جريج:

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج، كان يصلي، جاءته أمه فدعته، فقال: أجيبها أو أصلي، فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات، وكان جريج في صومعته، فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى، فأتت راعيا فأمكنته من نفسها، فولدت غلاما، فقالت: من جريج، فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام، فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: الراعي، قالوا: نبني صومعتك من ذهب؟ قال: لا، إلا من طين. وكانت امرأة ترضع ابنا لها من بني إسرائيل، فمر بها رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله، فترك ثديها وأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه - قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يمص أصبعه - ثم مرت بأمة، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها، فقال: اللهم اجعلني مثلها، فقالت: لم ذاك؟ فقال: الراكب جبار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون: سرقت، زنت. ولم تفعل).

بقرة تتكلم:

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح ثم أقبل على الناس فقال: (بينما رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالت إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث). فقال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم. فقال: فإني أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر، - وما هما ثم - وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة، فطلب حتى كأنه استنقذها منه. فقال له الذئب: هذه استنقذتها مني، فمن لها يوم السبع، يوم لا راعي لها غيري). فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم. قال: (فإني أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر). وما هما ثم.

وهكذا فليكن الإيمان بالغيب، إيمان أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

ومما ورد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم من كرامات أمته، مما هو إخبار بالمغيبات، ما صح عنه صلى الله عليه وسلم في شأن أويس القرني، وأنه كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم - وقد كان ذلك - ولقي عمر بن الخطاب أويسا، وسأله أن يستغفر له.

ومن ذلك ما أخبر به صلى الله عليه وسلم عن رجل من أمته سيقتله الدجال، ثم يحييه ثم يكرمه الله وينجيه منه. روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما حديثا طويلا عن الدجال، فكان فيما يحدثنا به أنه قال: (يأتي الدجال، وهو محرَّم عليه أن يدخل نقاب المدينة، فينزل بعض السِّباخ التي تلي المدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل، وهو خير الناس، أو من خيار الناس، فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثه، فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته، هل تشكُّون في الأمر؟ فيقولون: لا. فيقتله، ثم يحييه، فيقول: والله ما كنت أشد فيك بصيرة مني اليوم، فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه). وفي رواية مسلم: (إن الدجال يوسع ذلك الرجل المؤمن ضربا، ثم يأمر به فيوشر بالمنشار، ثم يمشي الدجال بين القطعتين. ثم يقول له: قم، فيستوي قائما، فإذا كذبه المؤمن ثانية يأخذه الدجال ليذبحه، فيُجعَل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاسا، فلا يستطيع إليه سبيلا).

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووالله ليكونن ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أخبر به وإن شك الكافرون وتأول المتأولون.

بعض من كرامات الصحابة وكشوفاتهم رضوان الله عليهم:

روى الإمام مالك في الموطإ عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت إن أبا بكر الصديق كان نحلها جاد عشرين وسقا من ماله بالغابة، فلما حضرته الوفاة قال:

و الله يا بنية ما من الناس أحد أحب إلي غنى بعدي منك ولا أعز علي فقرا بعدي منك، وإني كنت نحلتك جاد عشرين وسقا، فلو كنت جددتيه واحتزتيه كان لك، وإنما هو اليوم مال وإرث، وإنما هما أخواك وأختاك، فاقتسموه على كتاب الله، قالت عائشة: فقلت: يا أبت والله لو كان كذا وكذا لتركته، إنما هي أسماء فمن الأخرى؟ فقال أبو بكر: ذو بطن بنت خارجة أراها جارية.

نحلها: أعطاها. جادّ بشد الدال: مقدار ما يقطع منه عشرين وسقا من التمر. جددتيه: قطعتيه وحصدتيه.

فالصديق هنا أخبر بأن زوجته بنت خارجة حامل بجارية، وقد كان، فولدت بعد وفاته أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها.

وكان أبو بكر رضي الله عنه أعبر هذه الأمة بعد نبيها فيما رواه ابن سعد عن ابن سيرين، أي أعلمها بتعبير الرؤيا.

فمن ذلك ما أخرجه سعيد بن منصور عن سعيد بن المسيب قال: رأت عائشة رضي الله عنها كأنه وقع في بيتها ثلاثة أقمار، فقصتها على أبي بكر، وكان من أعبر الناس، فقال: إن صدقت رؤياك ليدفنن في بيتك خير أهل الأرض ثلاثا. فلما قبض النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا عائشة هذا خير أقمارك. ورواه الإمام مالك في موطئه.

وأخرج سعيد بن منصور أيضا عن أبي ليلى وعمر بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (رأيتني على بير أنزع فيها فوردتني غنم سود ثم ردفها غنم عفر). فقال أبو بكر: دعني أعبرها: أما الغنم السود فإنها العرب يسلمون ويكثرون والغنم البيض الأعاجم يسلمون حتى لا يرى العرب فيهم من كثرتهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كذلك عبرها الملك سحرا).

وأخرج ابن سعد عن ابن شهاب قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا فقصها على أبي بكر فقال: (رأيت كأني استبقت أنا وأنت درجة فسبقتك بمرقاتين ونصف). قال: يا رسول الله يقبضك الله إلى مغفرة ورحمة وأعيش بعدك سنتين ونصفا.

وأخرج عبد الرزاق في مصنفه عن أبي قلابة أن رجلا قال لأبي بكر الصديق: رأيت في النوم أني أبول دما، قال: أنت رجل تأتي امرأتك وهي حائض، فاستغفر الله ولا تعد.

انتهى من تاريخ الخلفاء للسيوطي من بدء الحديث عن الرؤيا إلى هنا.

وروى البخاري عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه أن أصحاب الصفة كانوا أناسا فقراء وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال مرة: (من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس) كما قال. وإن أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق النبي صلى الله عليه وسلم بعشرة وأبو بكر بثلاثة، فهو أنا وأبي وأمي، ولا أدري هل قال: امرأتي وخادمي بين بيتنا وبين بيت أبي بكر، وإن أبا بكر تعشى عند النبي صلى الله

عليه وسلم ثم لبث حتى صلى العشاء، ثم رجع فلبث حتى تعشى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء بعدما مضى من الليل ما شاء الله، فقالت له امرأته: ما حبسك عن أضيافك أو ضيفك؟ قال: أوعشيتيهم؟ قالت: أبوا حتى تجيء، قد عرضوا عليهم فغلبوهم. فذهبت واختبأت، فقال يا غنثر، فجدع وسب، وقال: كلوا لا، وقال: لا أطعمه أبدا، قال: وأيم الله ما كنا نأخذ من اللقمة إلا رأينا من أسفلها أكثر منها حتى شبعوا وصارت أكثر مما كانت قبل، فنظر أبو بكر فإذا شيء أو أكثر، قال لامرأته: يا أخت بني فراس، قالت: لا وقرة عيني لهي الآن أكثر مما قبل بثلاث مرات، فأكل منها أبو بكر وقال: إنما كان الشيطان، يعني يمينه، ثم أكل منها لقمة ثم حملها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأصبحت عنده، وكان بيننا وبين قوم عهد، فمضى الأجل فتفرقنا اثنا عشر رجلا مع كل رجل منهم أناس، قال: أكلوا منها أجمعون. أو كما قال.

غنثر: أي لئيم جاهل. وجدع: دعا عليه بجدع الأنف. وهذا من عتاب الآباء لأبنائهم. ولا أطعمه: أي لا أذوق هذا الطعام.

وقوله: "فإذا شيء أو أكثر": أي أنه رأى شيئا قدر الطعام الذي كان أو أكثر منه.

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر).

وفي رواية للبخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم: (لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن من أمتي منهم أحد فعمر).

ذكر الحافظ السيوطي في تاريخ الخلفاء أن البيهقي وأبا نعيم أخرجا في دلائل النبوة، وأخرج اللالكائي في شرح السنة، والديرعاقولي في فوائده، وابن الأعرابي في كرامات الأولياء، والخطيب في رواة مالك عن نافع عن ابن عمر قال: وجه عمر جيشا، ورأس عليهم رجلا يدعي سارية، فبينما عمر يخطب جعل ينادي: "يا ساريةُ الجبلَ"، ثلاثا. ثم قدم رسول الجيش فسأل عمر، فقال: يا أمير المؤمنين هزمنا، فبينا نحن كذلك إذ سمعنا صوتا ينادي: "يا سارية الجبل" ثلاثا، فأسندنا ظهورنا إلى الجبل، فهزمهم الله. قال: قيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك. وذلك الجبل الذي كان سارية عنده بنهاوند من أرض العجم.

قال الحافظ ابن حجر في الإصابة: إسناده حسن. وذكر الحافظ ابن كثير في البداية: إن لهذه القصة طرقا متعددة يشد بعضها بعضا. وأخرج ابن مردويه من طريق ميمون بن مهران عن ابن عمر، وأبو نعيم في الدلائل عن عمرو بن الحارث قالا: بينا عمر على المنبر يخطب يوم الجمعة إذ ترك الخطبة فقال: "يا ساريةُ الجبلَ" مرتين أو ثلاثا، ثم أقبل على خطبته. فقال الحاضرون: لقد جن، إنه لمجنون. فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف وكان يطمئن إليه، فقال: إنك لتجعل لهم على نفسك مقالا، بينا أنت تخطب إذ كنت تصيح: "يا ساريةُ الجبلَ" أيّ شيء هذا؟ قال: إني والله ما ملكت ذلك، رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم، فلم أملك أن قلت: "يا ساريةُ الجبلَ" ليلتحقوا بالجبل. فلبثوا إلى أن جاء رسول سارية بكتابه: إن القوم لقونا يوم الجمعة فقاتلناهم حتى إذا حضرت الجمعة ودار حاجب الشمس سمعنا مناديا ينادي: "يا ساريةُ الجبلَ" مرتين، فلحقنا بالجبل، فلم نزل قاهرين لعدونا حتى هزمهم الله وقتلهم. فقال أولئك الذين طعنوا عليه: دعوا هذا الرجل فإنه مصنوع له.

وقال أبو الشيخ في كتاب العظمة بسنده لما فتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص حين دخل يوم من أشهُر العجم فقالوا: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها، قال: وما ذاك؟ قالوا: إذا كان أحد عشر ليلة تخلوا من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها،

فأرضيا أبويها وجعلنا عليها من الثياب والحلي أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون أبدا في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله. فأقاموا والنيل لا يجري قليلا ولا كثيرا، حتى هموا بالجلاء، فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بذلك، فكتب له: أن قد أصبتَ بالذي قلتَ، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله، وإني قد بعثت إليك ببطاقة في داخل كتابي فألقها في النيل. فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو، أخذ البطاقة ففتحها فإذا فيها: "من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله يجريك فأسأل الواحد القهار أن يجريك"، فألقى البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم، فأصبحوا وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا في ليلة واحدة. فقطع الله تلك السُّنة عن أهل مصر إلى اليوم.

وهاتان الكرامتان هما اللتان أشار إليهما العلامة المختار ولد بونا في "وسيلة السعادة" بقوله السابق:

كَرَامَةُ الْوَلِيِّ حَقٌّ وَظَهَرْ ... مِنْهَا كَثِيرٌ كَرِسَالَةِ عُمَرْ
لِنِيلِ مِصْرَ وَسَمَاعِ سَارِيَهْ ... كَلَامَهِ مِنَ الْبِلادِ النَّائِيَهْ

وأخرج ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال: إن الرجل ليحدث عمر بالحديث فيكذبه الكذبة، فيقول: أحبس هذه، ثم يحدثه بالحديث، فيقول: أحبس هذه، فيقول له: كل ما حدثتك حق إلا ما أمرتني أن أحبسه. وأخرج عن الحسن قال: إن كان أحد يعرف الكذب إذا حدث به فهو عمر بن الخطاب.

وأخرج البيهقي في الدلائل أن عمر أخبر بأن أهل العراق قد حصبوا أميرهم، فخرج غضبان فصلى فسهل في صلاته، فلما سلم قال: "اللهم إنهم قد لبسوا علي فألبس عليهم، وعجل عليهم بالغلام الثقفي يحكم فيهم بحكم الجاهلية، لا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم". قلت: أشار به إلى الحجاج، قال ابن الهيعة: وما ولد الحجاج يومئذ.

انتهى من تاريخ الخلفاء.

قوله: حصبوا أميرهم: أي رموه بالحصباء، وهي الحجارة الصغار.

وروى الإمام مالك في الموطإ في "باب ما كره من الأسماء" أن عمر بن الخطاب قال لرجل: ما اسمك؟ فقال: جمرة. فقال ابن من؟ قال: ابن شهاب. قال: ممن؟ قال: من الحرقة. قال: أين مسكنك؟ قال: بحرة النار. قال: بأيها؟ قال: بذات لظى. قال عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا. فقال: فكان كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وفي تاريخ الخلفاء للسيوطي أن هذه الكرامة رواها أيضا أبو القاسم بن بشر في فوائده من طريق موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر. وأخرجها أيضا ابن الكلبي في الجامع، وابن دريد في الأخبار المنثورة، وغيرهم.

وذكر المحدث الكبير المتقي الهندي في منتخب كنز العمال (ج4، ص416) أن عبد الرزاق ذكر في جامعه، وابن سعد عن الحكم بن العاص الثقفي قال: كنت قاعدا مع عمر بن الخطاب فأتاه رجل فسلم عليه، فقال له عمر: بينك وبين أهل نجران قرابة؟ قال الرجل: لا. قال عمر: بلى. قال الرجل: لا. قال عمر: بلى. قال الرجل: لا. قال عمر: بلي والله، أنشد الله كل رجل من المسلمين يعلم أن بين هذا وبين أهل نجران قرابة لما تكلم. فقال رجل من القوم: يا أمير المؤمنين بلى بينه وبين أهل نجران قرابة من قبل كذا وكذا، ولدته امرأة من أهل نجران. فقال له عمر: مه، إنا نقفو الآثار.

وروى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: ما سمعت عمر لشيء قط يقول: إني لأظنه كذا إلا كان كما يظن.

بينما عمر جالس إذ مر به رجل جميل فقال: لقد أخطأ ظني أو إن هذا على دينه في الجاهلية أو لقد كان كاهنهم، علي الرجلَ، فدعي فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كاليوم استقبل به رجل مسلم؛ قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني، قال: كنت كاهنهم. قال: فما أعجب ما جاءتك به جِنِّيَّتُكَ. قال: بينما أنا يوما في السوق جاءتني أعرف فيها الفزع فقالت أَلَمْ تَرَ الْجِنَّ وَإِبْلاَسَهَا وَيَأْسَهَا مِنْ بَعْدِ إِنْكَاسِهَا وَلُحُوقَهَا بِالْقِلاَصِ وَأَحْلاَسِهَا. قال عمر: صدق. بينما أنا عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ لم أسمع صارخا قط أشد صوتا منه يقول: يَا جَلِيحْ أَمْرٌ نَجِيحْ رَجُلٌ فَصِيحْ يقول: لا إله إلا الله. فوثب القوم، قلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى: يَا جَلِيحْ أَمْرٌ نَجِيحْ رَجُلٌ فَصِيحْ يقول: لا إله إلا الله، فقمت فما نشِبنا أن قيل هذا نبي.

الإبلاس: الخوف. الإنكاس: الإنقلاب على الرأس. الحلس: كساء يجعل تحت رحل الإبل. الجليح: الوقح، أو هو رجل بعينه.

وذكر الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية أن الإمام مالكا رضي الله عنه قال: بلغني أن عثمان رضي الله عنه كان يمر بمكان قبره من حش كوكب فيقول: إنه سيدفن ههنا رجل صالح.

وروى ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن سلام قال: أتيت عثمان لأسَلِّم عليه وهو محصور، فدخلت عليه فقال: مرحبا بأخي، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة من هذه الخوخة، فقال: يا عثمان حصروك. قلت: نعم، قال: عطشوك. قلت: نعم. فأدلى دلوا فيه ماء فشربت حتى رويت، حتى إني لأجد برده بين ثديي وبين كتفي، وقال لي: إن شئت نصرت عليهم، وإن شئت أفطرت عندنا، فاخترت أن أفطر عنده. فقتل ذلك اليوم.

وفي رواية الهيثم بن كليب أن زوجة عثمان نائلة بنت الفرافصة أتته بماء عذب فنظر فإذا الفجر قد طلع. فقال: إني أصبحت صائما. قالت: ومن أين أكلت ولم أر أحدا أتاك بطعام ولا شراب؟ فقال: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلع من هذا السقف ومعه دلو ماء فقال: اشرب يا عثمان، فشربت حتى رويت.

وروى البخاري في التاريخ عن محمد بن سيرين قال: كنت أطوف بالكعبة وإذا رجل يقول: اللهم اغفر لي، وما أظن أنك تغفر لي، فقلت: يا عبد الله ما سمعت أحدا يقول ما تقول، قال: كنت أعطيت لله عهدا إن قدرت ألطم وجه عثمان إلا لطمته، فلما قتل وضع على سريره في البيت والناس يجيئون يصلون عليه، فدخلت كأني أصلي عليه، فوجدت خلوة فرفعت الثوب عن وجهه ولحيته ولطمته وقد يبست يميني. قال ابن سيرين: فرأيتها يابسة كأنها عود.

وروى الإمام أحمد والبخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة: (ألا أستحيي ممن تستحيي منه الملائكة)، يعنى بذلك عثمان رضي الله عنه.

وروى البخاري في التاريخ عن الحسن قال: أدركت عثمان على ما نقموا عليه، قل ما يأتي على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيرا، يقال لهم: "يا معشر المسلمين اغدوا على أعطياتكم"، فيأخذونها وافرة، ثم يقال لهم: "اغدوا على أرزاقكم"، فيأخذونها وافرة، ثم يقال لهم: "اغدوا على السمن والعسل، الأعطيات جارية، والأرزاق دارة، والعدو متقى، وذات البين حسن، والخير كثير، وما من مؤمن يخاف مؤمنا، ومن لقيه فهو أخوه". انتهى كلام ابن كثير.

ومما اشتهر أيضا قصة عثمان رضي الله عنه مع الرجل الذي دخل عليه، وقد نظر إلى امرأة أجنبية في الطريق، فقال له عثمان: أيدخل علي أحدكم وفي عينيه أثر الزنا؟ فقال الرجل: أوَحْيٌ بعد النبي صلى اله عليه وسلم؟ فقال عثمان رضي الله عنه: لا، ولكن فراسة المؤمن.

وذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء أن أبا نعيم أخرج في الدلائل عن جعفر بن محمد عن أبيه، قال: عرض لعلي رجلان في خصومة, فجلس في أصل جدار، فقال له رجل: الجدار يقع، فقال علي: امض كفى بالله حارسا. فقضى بينهما فقام، ثم سقط الجدار.

وأخرج عبد الرزاق عن حجر المدري، قال: قال لي علي بن أبي طالب: كيف بك إذا أمرت أن تلعنني؟ قلت: وكائن ذلك؟ قال: نعم، قلت: فكيف أصنع؟ قال: العني ولا تبرأ مني. قال: فأمرني محمد بن يوسف أخو الحجاج وكان أميرا على اليمن أن ألعن عليا، فقلت: إن الأمير أمرني أن ألعن عليا فالعنوه لعنة الله، فما فطن لها إلا رجل.

(قلت: وجه الكلام إن الهاء في: "فالعنوه" وفي: "لعنه الله" ترجع إلى الأمير، في حين أن الأمير وجماعته يظنون أنها راجعة إلى علي كرم الله وجهه.)

وأخرج الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الدلائل عن زاذان أن عليا حدث بحديث، فكذبه رجل، فقال له علي: أدعو عليك إن كنت كاذبا؟ قال: ادع. فدعا عليه، فلم يبرح حتى ذهب بصره.

وروى مسلم عن أنس قال: عَمِّي الذي سميت به لم يشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا، قال: فشق عليه، قال: أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غيبت عنه، وإن أراني الله مشهدا فيما بعد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع، قال: فهاب أن يقول غيرها قال: فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد. قال: فاستقبل سعد بن معاذ، فقال له أنس: يا أبا عمرو أين؟ فقال: واها لريح الجنة أجده دون أحد، قال: فقاتلهم حتى قتل، قال: فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية فقالت أخته عمتي الربيع بنت النضر: فما عرفت أخي إلا ببنانه. ونزلت هذه الآية: (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (23)). قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه.

ومن كرامات الأولياء رؤيتهم للملائكة والجن، وسماع أصوات الموتى، فمن ذلك ما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري: أن أسيد بن حضير بينما هو ليلة يقرأ في مربده إذ جالت فرسه، فقرأ ثم جالت أخرى، فقرأ، ثم جالت أيضا قال أسيد: فخشيت أن تطأ يحيى، فقمت إليها، فإذا مثل الظلة فوق رأسي فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها، قال: فغدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدي إذ جالت فرسي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اقرأ اقرأ ابن حضير)، قال: فقرأت، ثم جالت أيضا، فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اقرأ ابن حضير)، قال: فقرأت ثم جالت أيضا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اقرأ ابن حضير)، قال: فانصرفت، وكان يحيى قريبا منها، خشيت أن تطأه، فرأيت مثل الظلمة بها أمثال السرج، عرجت في الجو حتى ما أراها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تلك الملائكة كانت تستمع لك، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم).

وروى الترمذي وصححه، وروى الإمام أحمد بسند رجال ثقات، وابن ماجه عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: صلى النبي صلى الله عليه وسلم العشاء ثم انصرف فأخذ بيدي حتى خرج إلى بطحاء مكة فأجلسني وخط علي خطا وقال: (لا تبرحن من خطك، فإنه سينتهي إليك رجال، فلا تكلمهم، فإنهم لن يكلموك). ثم مضى حيث أراد فبينا أنا جالس في خطي إذ أتاني

رجال كأنهم الزط، أشعارهم تواري أجسامهم، لا أرى عورة ولا أرى قشرا، وينتهون إلي لا يجاوزون الخط، ثم يصدرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كان آخر الليل، جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا جالس، فدخل علي خطي، فتوسد فخذي فرقد، وكان إذا رقد نفخ، فبينا أنا قاعد وهو متوسد فخذي إذا أتاني رجال عليهم ثياب بيض، الله أعلم ما بهم من الجمال، فانتهوا إلي فجلست طائفة منهم عند رأسه، وطائفة عند رجليه، ثم قال أبينهم: ما رأينا عبدا قط أوتي مثل ما أوتي هذا النبي، إن عينيه تنامان وقبله يقظان وفى آخره، فقال صلى الله عليه وسلم: (سمعت ما قال هؤلاء؟ وهل تدري من هم؟) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (هم الملائكة...) الحديث.

وروى مسلم عن سعد قال: رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبل ولا بعد، يعني: جبريل وميكائيل عليهما السلام.

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سمع وجبة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أتدرون ما هذا؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: (هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفا، فهو يهوي في النار، الآن حين انتهى إلى قعرها، فسمعتم وجبتها).

وروى الإمام أحمد والطبراني برجال الصحيح وابن ماجه أن حارثة بن النعمان قال: مررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل جالس في المقاعد، فسلمت عليه ثم أجزت، فلما رجعت وانصرف النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (هل رأيت الذي كان معي)؟ قلت: نعم، قال: (إنه جبريل وقد رد عليك السلام).

وممن روي أنه رأى الملائكة والجن من الصحابة: ابن عباس، وحذيفة، وأبي، والعرباض بن سارية، وأمنا عائشة، ومعاذ، وابن عمر، وأبو هريرة رضي الله عنهم وغيرهم كثير.

وقد ثبت أن الصحابة سمعوا صوت الملائكة تعزيهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وناداهم هاتف أن لا يجردوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثيابه، لما أرادوا أن يغسلوه.

وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين، فلما اكتوى انقطع التسليم، فلما انقطع عن الكي عاد التسليم.

وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضرب بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خباءه على قبر، وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة: (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) حتى ختمها، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) حتى ختمها. فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر).

قال الترمذي: حديث حسن، ولكن ابن العربي في شرحه قال: إن حديث سورة الملك حديث صحيح. وذكر الحافظ السيوطي في الخصائص أنه رواه البيهقي والحاكم وصححه.

وروى الحاكم: في المستدرك بإسناد صحيح، وقال الذهبي إنه مرسل، عن عبد الله بن أبي فروة أن النبي صلى الله عليه وسلم زار قبور الشهداء بأحد فقال: (اللهم إن عبدك ونبيك يشهد أن هؤلاء شهداء وأنه من زارهم وسلم عليهم إلى يوم القيامة ردوا عليه).

قال العطاف بن خالد المخزومي: وحدثتني خالتي أنها زارت قبور الشهداء، قالت: وليس معي إلا غلامان يحفظان علي الدابة قالت: فسلمت عليهم، فسمعت رد السلام، قالوا: والله إنا لنعرفكم كما يعرف بعضنا بعضا، قالت: فاقشعررت، فقلت: يا غلام أدن بغلتي، فركبت.

وذكر السيوطي في الخصائص أنه رواه الحاكم وصححه والبيهقي، وروى حديث العطاف عن خالته ابن أبي الدنيا والبيهقي من وجه آخر.

وهذا الباب أكثر من أن يحصى في كتب الحديث الصحاح بين الصحابة والتابعين.

ومن الكرامات الكثيرة في كتب الحديث أيضا إخبار الأولياء بالمغيبات، فمن ذلك ما تقدم عن الخلفاء الراشدين.

ومنه ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن سعد بن معاذ قال وكان جرح يوم الخندق : اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتي فيها، فانفجرت من لبته، فلم يرعهم - وفي المسجد خيمة من بني غفار- إلا الدم يسيل إليهم، فإذا سعد يغدو جرحه دما، فمات منها رضي الله عنه.

فافجرها، بضم الجيم أي جراحته، وكانت كادت أن تبرأ.

وروى الطبراني برجال الصحيح عن سيعد بن عبيد وكان يدعى في زمن النبي صلى الله عليه وسلم القارئ، وكان له عدو فانهزم منهم، فقال له عمر: هل لك في الشام لعل الله أن يمن عليك؟ قال: لا إلا العدو الذي فررت منهم، قال: فخطبهم بالفارسية فقال: إنا لاقو العدو إن شاء الله غدا فمستشهدون، فلا تغسلوا عنا دما ولا نكفن إلا في ثوب كان علينا.

مجمع الزوائد (ج3، ص2).

وروى الحاكم في المستدرك عن هرم بن حيان العبدي أنه لقي أويسا - ولم يكن يعرفه - فقال: رحمك الله يا هرم بن حيان، فقال له: كيف عرفتني؟ فأجاب: نبأني العليم الخبير، عرفت روحي روحك.

وهذا باب لا يكاد ينتهي.

ولا تظن أن في إخبار الأولياء بالمغيبات معارضة لقول الله تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ).

فإن المنفي هنا علم الغيب كله، قال الشيخ زاهد الكوثري في مقالاته (ص073): إن المصدر مضاف، وهو من ألفاظ العموم، فهو يفيد سلب العموم، لا عموم السلب، فيكون المعنى: نفي علم جميع الغيب، لا نفي علم شيء من الغيب. على أن العلم بإعلام الله ليس من علم الغيب. ولا شك أن علم الغيب بدون إعلام الله مستحيل.

ومثل ذلك في رسالة شيخ الإسلام الحموي، كتاب نفحات القرب والاتصال بإثبات التصرف لأولياء الله تعالى والكرامة بعد الانتقال.

وقد نحا الغوث الكبير الشريف سيدي عبد العزيز الدباغ منحى آخر في هذا المجال، وهو أنه ذكر ما مضمونه: إن أولياء أمة محمد صلى الله عليه وسلم داخلون في المستثنى في قوله تعالى: (إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)، فإن المستثنى حقيقة هو الرسول عليه الصلاة والسلام،

وأما أو لياء أمته فإنما نالهم شيء من بركته، والاستثناء إنما المقصود به إخراج الكهان والعرافين ومن له تابع من الجن الذين كانت الجاهلية تعتقد فيهم علم الغيب، وأما الأولياء فليسوا مقصودين بالإخراج، لأن كراماتهم تصديق للنبي صلى الله عليه وسلم.

انظر الإبريز ص: 166 و 167.

واعلم أن إخبار الأولياء بالمغيبات بلغ مبلغا من التواتر والكثرة بحيث لا ينكره إلا معاند مكابر. وقد شهد به علماء الأمة في كل زمان، ولا نزال نشاهده، والحمد الله تعالى، في أولياء أمة محمد صلى الله عليه وسلم. ونورد هنا كلمة قصيرة لابن تيمية في "منهاج السنة" في الجواب عما ذكره الرافعي من إخبار علي كرم الله وجهه بالمغيبات وأنه بذلك يكون أحق من الشيخين بالخلافة، قال ابن تيمية:

"الجواب أن يقال: أما الإخبار ببعض الأمور الغائبة، فمن هو دون علي يخبر بمثل ذلك، فعلي أجل قدرا من ذلك، وفي أتباع أبي بكر وعمر وعثمان من يخبر بأضعاف ذلك، ومثل هذا موجود في زماننا وغير زماننا..." الخ كلامه. ثم قال: "إن ما يخبر به أبو هريرة وحذيفة وغيرهما قد يكون مما يسندونه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقد يكون مما كوشفوا به. والكتب المصنفة في كرامات الأولياء وأخبارهم مثل "كتاب الزهد" للإمام أحمد، و"حلية الأولياء" للخلال وابن أبي الدنيا واللالكائي فيها من الكرامات عن أتباع أبي بكر وعمر كالعلاء بن الحضرمي وأبي مسلم الخولاني وأبي الصهباء وعامر بن عبد القيس وغيرهم ممن علي أعظم منه..." إلى آخر كلامه.

من شواهد الحق ص: 280.

وقال الإمام النووي: في شرح مسلم، عند الحديث عن قوله صلى الله عليه وسلم: (قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم): وفيه إثبات كرامات الأولياء، مما يدل على أن الكشف عنده من جملة كرامات الأولياء.

وقال الحافظ بن حجر في: فتح الباري: في الحديث عن فضائل عمر رضي الله عنه: إن هذه الأمة لا تحتاج إلى محدث، والمحدث منهم إذا تحقق وجوده لا يحكم بما وقع له، بل لا بد له من عرضه على القرآن، فإن وافقه، أو وافق السنة عمل به وإلا تركه. وهذا وإن جاز أن يقع له، لكنه نادر ممن يكون أمره منهم مبنيا على اتباع الكتاب والسنة. وتمخضت الحكمة في تكثيرهم في مضاهاة بني إسرائيل في كثرة الأنبياء فيهم، فلما فات هذه الأمة كثرة الأنبياء فيها، لكون نبينا خاتم الأنبياء، عوضوا بكثرة الملهمين.

ففي كلام هذا الإمام ثلاث مسائل مما نحن فيه: فقد أثبت وجود المحدثين في هذه الأمة وأنهم كثيرون فيها، وأثبت أنهم لا يخالفون الكتاب والسنة في إلهاماتهم إلا نادرا.

وقال: إن محدثي هذه الأمة -أي أولياؤها- عُوِّضَتْهُمْ هذه الأمة عن الأنبياء، فحلوا لها محل الأنبياء، إذ أن نبيها صلى الله عليه وسلم وعلى سائر الأنبياء كان خاتما للأنبياء.

وقال الإمام الفخر الرازي: في تفسيره الكبير، عند قوله تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ): وقال الزمخشري: "في هذا إبطال للكرامات". ولا دلالة في الآية على ذلك، لأنها ليست فيها صيغة عموم، فيكفي أن ينفى غيب واحد للعمل بمقتضاه، فنحمله على قيام وقت الساعة لأنه ذكره بعد قوله تعالى: (قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (25)).

واعلم أنه لا بد من القطع بأنه ليس مراد الله من هذه الآية أن لا يطلع أحدا على شيء من المغيبات إلا الرسل. ثم ذكر أدلة عديدة تدور حول ما بلغ مبلغ التواتر من اطلاع بعض الناس على المغيبات... إلى أن قال: "فالقول بأن القرآن يدل على خلافه مما يجر الطعن إلى القرآن ". وذلك باطل، فعلمنا أن التأويل الصحيح ما ذكرناه.

انتهى كلام الإمام الرازي.

وقال الإمام أحمد بن المنير السكندري في حاشيته على الكشاف: قوله: "إبطال للكرامات": ادعى عاما واستدل بخاص، فالكرامات أعم من معرفة الغيب، وللقدرية شبهة في إبطالها لأن الله عز وجل لا يتخذ منهم وليا أبدا وهم لم يحدثوا بذلك عن أشياخهم قط. فلا جرم أنهم يستمرون في الإنكار ولا يعلمون أن شرط الكرامة الولاية، وهي مسلوبة منهم اتفاقا، وأما سلب الإيمان فمسألة خلاف، فما أطمع من يكون إيمانه مسألة خلاف في الكرامة. والله الموفق.

وقال ولي الله تعالى العلامة محمد اليدالي في تفسيره "الذهب الإبريز": قال في لطائف المنن في قوله تعالى: (إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ): سمعت شيخنا أبا العباس يقول: وفي معناه ولي أو صديق، وذلك لأن السلطان مثلا إذا أذن لوزيره أن يدخل عليه، ربما دخل بعض مماليك الوزير معه، وكان الإذن لمتبوعهم إذنا لهم، كذلك الولي إذا أطلعه الله على غيب، فإنما ذلك لانطوائه في جاه النبوءة وقيامه بصدق المتابعة، فما رأى ذلك بنفسه، وإنما رآه بنور متبوعه.

وقال الغزالي: في الكلام حذف يدل عليه الشرع والمشاهدة الضرورية، وهو (إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ): أي ومن اتبعه باستقامة. وشواهد الشرع كثيرة جدا، تعجز المتأول وتبهت المعاند.

ولنعد لذكر بعض الكرامات:

روى البخاري عن جابر قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ).

وفي إرشاد الساري: إن الترمذي روى عن أنس وصححه قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخف جنازته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الملائكة كانت تحمله).

وروى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: لما حضر أحد دعاني أبي من الليل فقال: ما أراني إلا مقتولا في أول من يقتل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وإني لا أترك بعدي أعز علي منك غير نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن علي دينا، فاقضه واستوص بأخواتك خيرا، فأصبحنا فكان أول قتيل، ودفن معه آخر في قبر، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر فاستخرجته بعد ستة أشهر، فإذا هو كيوم وضعته، غير هُنَيّة عند أذنه.

وهُنَيّة - بضم الهاء وفتح النون وتشديد الياء-: أي شيء يسير.

وفي هذا الحديث كرامتان، أولاهما: أن عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر أخبر ابنه أنه سيقتل غدا، والثانية: أنه لم تأكله الأرض بعد ستة أشهر في قبره.

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن أسيد بن حضير وعباد بن بشر خرجا من عند النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة، وإذا بنور بين أيديهما حتى تفرقا، فتفرق النور معهما.

وذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة أن خالد بن الوليد لما قدم الحيرة أتى بسم فوضعه في راحته، ثم سمى وشربه، فلم يضره. رواه أبو يعلى وابن سعد من وجوه.

وروى ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح عن خيثمة قال: أتى خالد بن الوليد رجل معه زق خمر، قال: اللهم اجعله عسلا، فصار عسلا.

وروى البخاري في الأدب المفرد: "باب الخروج إلى المبقلة" عن ابن عباس قال: قال عمر رضي الله عنه: اخرجوا بنا إلى أرض قومنا، فخرجنا فكنت أنا وأبي بن كعب في مؤخر الناس، فهاجت سحابة، فقال أبي: "اللهم اصرف عنا أذاها"، فلحقناهم وقد ابتلت رحالهم، فقالوا: ما أصابكم ما أصابنا؟ قلت: إنه دعا الله عز وجل أن يصرف عنا أذاها، قال عمر: ألا دعوتم لنا معكم؟

ومن كرامات الأولياء: استجابة دعاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في الرجل الذي قال فيه كلام سوء كاذبا، فأطال الله عمر ذلك الرجل وأطال فقره وعرضه للفتن، حتى كان يرى في الشارع وقد سقط حاجباه من الكبر وهو يغمز الفتيات، فإذا ليم على ذلك، قال: رجل أصابته دعوة سعد.

ومنها: دعاؤه رضي الله عنه على رجل سمعه يسب عليا كرم الله وجهه أو غيره من الصحابة أن يُرِيَ اللهُ الناسَ فيه آيةً؛ فما برح مكانه حتى هلك. ومنها أنه مرض فقال: يا رب إن لي بنين صغارا فأخِّرْ عني الموت حتى يبلغوا. فأخر عنه عشرين سنة.

ومنها: دعاء سعيد بن زيد رضي الله عنه على أروى وقد ادعت عليه عند مروان أنه أخذ لها شيئا من أرضها. قال سعيد: اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها واقتلها في أرضها. فما ماتت حتى ذهب بصرها، وبينما هي تمشى في تلك الأرض إذ وقعت في حفرة فماتت. وجاء سيل فكشف عن العين التي كانت هي ادعت على سعيد، فبان أن عينها هي ليست العين التي كان فيها النزاع، وظهر صدق سعيد رضي الله عنه.

ومنها: دعاء أمنا زينب بنت جحش رضي الله عنها لما بعث إليها عمر رضي الله عنهما بعطائها من بيت المال فاستكثرته وارتاعت وقسمته بين دور المهاجرين والأنصار من الأيتام وغيرهم ثم قالت: "اللهم لا يدركني عطاء عمر من قابل". فلم يحل عليها الحول حتى توفيت، وبان بذلك صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أسرع نسائه لحوقا به أطولهن يدا. وطول اليد عبارة عن السخاء، رضي الله عنهن جميعا.

وذكر الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية أن البيهقي روى في دلائل النبوءة بسنده إلى منجاب قال: غزونا مع العلاء بن الحضرمي دَارينَ فدعا بثلاث دعوات فاستجيبت له:

فنزل منزلا فطلب الماء فلم يجده فقام وصلى ركعتين وقال: "اللهم إنا عبيدك وفي سبيلك نقاتل عدوك، اللهم اسقنا غيثا نتوضأ به ونشرب، ولا يكون لأحد فيه نصيب غيرنا". فسرنا قليلا، فإذا نحن بماء حين أقلعت السماء عنه فتوضأنا منه وتزودنا، وملأت إداوتي وتركتها مكانها حتى أنظر هل استجيب له أم لا، فسرنا قليلا ثم قلت لأصحابي: نسيت إدواتي، فرجعت إلى ذلك المكان فكأنه لم يصبه ماء قط.

ثم سرنا حتى أتينا دارين والبحر بيننا وبينهم، فقال: يا علي يا حكيم إنا عبيدك وفي سبيلك نقاتل عدوك، اللهم فاجعل لنا إليهم سبيلا، فدخلنا البحر فلم يبلغ الماء لبودنا ومشينا على متن الماء ولم يبتل لنا شيء. وذكر بقية القصة.

ورواها أيضا البخاري في التاريخ عن منجاب، ورواها البيهقي أيضا عن أبي هريرة أنه كان مع العلاء وشاهد ذلك.

ورواها البيهقي أيضا عن أنس بن مالك، قال: أدركت ثلاثا لو كانت في بني إسرائيل لما تقاسمها الأمم، قلنا: ما هي يا أبا حمزة؟ قال: كنا في الصفة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتته امرأة مهاجرة ومعها ابن لها قد بلغ فأضاف المرأة إلى النساء وأضاف ابنها إلينا، فلم يلبث أن أصابه وباء المدينة؛ فمرض أياما ثم قبض، فغمضه النبي صلى الله عليه وسلم وأمر بجهازه فلما أردنا أن نغسله قال: يا أنس ائت أمه فأعلمها، فأعلمتها، قال: فجاءت حتى جلست عند قدميه، فأخذت بهما ثم قالت: اللهم إني أسلمت لك طوعا وخلعت الأوثان فلا تحملني من هذه المصيبة ما لا طاقة لي بحمله، قال: فو الله ما انقضى كلامها حتى حرك قدميه وألقى الثوب عن وجهه وعاش حتى قبض الله رسوله وحتى هلكت أمه.

ثم ذكر أنس دعاء العلاء لما عطشوا وأنه -أي انس- كان معه، ثم ذكر أن العلاء مات وأنهم دفنوه بأرض لا تقبل الموتى ثم حفروا عنه لينقلوه إلى غيرها فلم يجدوه ثَمَّ وإذا اللحد يتلألأ نورا فأعادوا التراب عليه ثم ارتحلوا.

وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية في ذكر ما أوتي عيسى عليه السلام أن هذه القصة ثبتت روايتها عن أنس رضي الله عنه.

و ذكر ابن كثير أيضا في البداية والنهاية أن الحاكم روى في المستدرك، والبيهقي في الدلائل وصححه عن سعيد بن المسيب أن زيد بن خارجة الأنصاري، وهو ممن شهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، توفي في زمن عثمان فسجي بثوبه، ثم إنهم سمعوا جلجلة في صدره ثم تكلم، فقال: أحمد في الكتاب الأول، صدق صدق أبو بكر الضعيف في نفسه القوي في أمر الله صدق صدق، في الكتاب الأول عمر بن الخطاب القوي في الكتاب الأول صدق صدق عثمان بن عفان على منهاجهم مضت أربع وبقيت اثنتان، أتت الفتن وأكل الشديد الضعيف وقامت الساعة وسيأتيكم عن جيشكم خبر.

قال البيهقي: وقد روي التكلم بعد الموت عن جماعة بأسانيد صحيحة والله أعلم.

وذكر الحافظ أيضا في البداية والنهاية أن الحافظ ابن عساكر في تاريخه روى من غير وجه أن الأسود العنسي كان باليمن فأرسل إلى مسلم الخولاني فقال: أتشهد أن محمدا رسول الله. قال: نعم. قال: أتشهد أني رسول الله. قال: ما أسمع. فأعاد إليه، قال: ما أسمع. فأمر بنار عظيمة فأججت، فطرح فيها أبو مسلم فلم تضره، فقيل للأسود: لئن تركت هذا في بلادك أفسدها عليك. فأمره بالرحيل، فقدم المدينة وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر فقام إلى سارية من سواري المسجد يصلي؛ فبصر به عمر، فقال: من أين الرجل؟ قال: من اليمن، قال: ما فعل الله بصاحبنا الذي حرق بالنار فلم تضره؟ قال: ذلك عبد الله ابن أيوب، قال: نشدتك بالله أنت هو؟ قال: اللهم نعم، قال: فقبل ما بين عينيه ثم جاء به حتى أجلسه بينه وبين أبي بكر الصديق وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد صلى الله عليه وسلم من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الرحمن عليه السلام.

وذكر أيضا ابن عساكر وابن أبي الدنيا رويا أن أبا مسلم الخولاني كان إذا دخل منزله فبلغ وسط الدار كبر وكبرت امرأته فإذا دخل البيت كبر وكبر امرأته فيدخل فينزع رداءه وحذاءه وتأتيه بطعام يأكل، فجاء ذات ليلة فكبر فلم تجبه، ثم جاء إلى باب البيت فكبر وسلم فلم تجبه وإذا البيت ليس فيه سراج وإذا هي جالسة بيدها عود تنكت في الأرض، فقال لها: مالك؟ فقالت: الناس بخير وأنت لو أتيت معاوية فيأمر لنا بخادم ويعطيك شيئا تعيش به، فقال: اللهم من أفسد علي أهلي فأعم بصره، قال: وكانت أتتها امرأة، فقالت لامرأة أبى مسلم: لو كلمت

زوجك ليكلم معاوية فيخدمك ويعطيكم. قال فبينما هذه المرأة في منزلها والسراج مزهر إذ أنكرت بصرها، فقالت: سراجكم طفئ، قالوا: لا، قالت: إن الله أذهب بصري. فأقبلت كما هي إلى أبي مسلم فلم تزل تناشده وتتلطف إليه، فدعا الله فرد بصرها ورجعت امرأته إلى حالها التي كانت عليها.

وذكر الحافظ بن عساكر في ترجمة أبي مسلم الخولاني أنه خرج في عصبة من قومه إلى الحج بلا زاد ولا مزاد فغدوا من غوطة دمشق فلما انتهوا إلى المنزل صلى أبو مسلم ركعتين ثم قال: إلهي قد تعلم ما أخرجني من منزلي، وقد رأيت البخيل من ولد آدم تنزل به العصابة من الناس فيوسعهم قرى، وإنا أضيافك وزوارك فأطعمنا وأسقنا وأعلف دوابنا، فأتي بسفرة مدت بين أيديهم وجيء بالعلف لا يدرون من يأتي به فلم تزل تلك حالهم منذ خرجوا من عند أهاليهم حتى رجعوا لا يتكلفون زادا ولا مزادا.

وإنما نال ذلك ببركة متابعته لهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

وروى البيهقي عن الشعبي قال: أقبل رجل من اليمن، فلما كان في بعض الطريق نفق حماره فقام فتوضأ ثم صلى ركعتين، ثم قال: اللهم إني جئت من المدينة مجاهدا في سبيلك وابتغاء مرضاتك وأنا أشهد أنك تحيي الموتى وتبعث من في القبور لا تجعل لأحد علي منة أطلب إليك اليوم أن تبعث حماري. فقام الحمار ينفض أذنيه.

قال الشعبى: فأنا رأيت الحمار يباع في الكوفة وكان ذلك في زمن عمر رضي الله عنه. ونفق: مات.

وروى هذه القصة أيضا ابن أبى الدنيا عن الشعبى.

ورواها البيهقي من طريق آخر عن أبى سبرة النخمي وقال إن إسنادها صحيح.

وقد جمع ابن أبى الدنيا كتابا فيمن عاش بعد الموت.

وفى قصة الحمار الذي أحياه الله تعالى يقول بعض قوم ذلك الولي صاحب الحمار:

وَمِنَّا الَّذِي أَحْيَا الإِلهُ حِمَارَهُ وَقَدْ مَاتَ مِنْهُ كُلُّ عُضْوٍ وَمِفْصَلِ

وذكر الحافظ المنذري عن السري بن يحيى رضي الله عنه عن رجل من طيئ وأثنى عليه خيرا، قال: كنت أسأل الله عز وجل أن يريني الاسم الذي إذا دعي به أجاب، فرأيت مكتوبا في الكوكب: "يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام".

قال الحافظ: رواه أبو يعلى ورواته ثقات. (ج2، ص486).

وروى الطبراني عن حسان بن مالك بن عبد الله الخثعمي وكان مالك من أصحاب النبي صلى لله عليه وسلم، قال: رأيت مالك بن عبد الله يتوضأ وكان في ساقه عرق مكتوب "الله"، فجعلت أنظر إليه فقال: أي شيء تنظر، أما إنه لم يكتبه كاتب.

وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها، قالت: لما مات النجاشي رحمه الله كنا نتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور.

وذكر غنجار في تاريخ بخارى، والإمام اللالكائي في شرح السنة في باب كرامات الأولياء أن الإمام محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الصحيح ذهبت عيناه في صغره فرأت أمه إبراهيم

الخليل عليه الصلاة والسلام في المنام فقال لها: قد رد الله على ابنك بصره بكثرة دعائك له. فأصبح وقد رد الله عليه بصره.

ذكر ذلك القسطلاني في إرشاد الساري.

ونحن نحمد الله تبارك وتعالى حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه على أن رد للبخاري بصره ونصر به دينه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، نسأله عز وجل أن يكرمنا بما أكرم به أولياءه ويعافينا في ديننا ودنيانا ويحقق لنا آمالنا ويغفر لنا ويرحمنا ببركة نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وينصر بنا دينه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يكرمنا ويكرم بنا ويكرم على أيدينا وأن يرزقنا مقام الرفعة من الله وبالله وفى الله تعالى بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

واعلم أن كرامات الأولياء إنما هي في الحقيقة كرامة لصاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم.

وهذا أمر صرح به العلماء وألفوا فيه ومن جملة من أشار إليه الإمام اللالكائي شيخ الحافظ ابن كثير فقد ألف في أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطي من المعجزات مثل ما أعطي جميع الأنبياء قبله؛ واستعرض معجزات الأنبياء وقابل مع كل معجزة لهم معجزة لنبينا صلى الله عليه وسلم أو كرامة لولي من أمته.

وفي هذا المعنى قال العلامة الحافظ سيدي أحمد بن المبارك السجلماسي المغربي في كتابه "الإبريز" الذي أخذه من كلام شيخه الولي الكبير الشريف سيدي عبد العزيز الدباغ في باب ذكر ديوان الصالحين:

وكنت أتكلم معه رضي الله عنه ذات يوم فذكرت له سيدنا سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام وما سخر الله له من الجن والإنس والشياطين والريح وذكرت ما أعطى الله تعالى لأبيه داود عليه السلام من صناعة الحديد وإلانته حتى يكون في يده مثل العجين، وما أعطى الله لسيدنا عيسى عليه السلام من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله سبحانه، ونحو ذلك من معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفُهِمَ مِنِّي كأني أقول له: وسيد الوجود صلى الله عليه وسلم فوق الجميع، ولم يظهر على يده مثل ذلك؟ وأنه إن ظهر على يده شيء من المعجزات فمن فن آخر؟ فقال رضي الله عنه: كل ما أعطيه سليمان عليه السلام، وما سخر لداود، وأكرم به عيسى عليه السلام، أعطاه الله تعلى لأهل التصرف من أمة النبي صلى الله عليه وسلم، فإن الله تعالى سخر لهم جميع العوالم وتمكنهم من القدرة على إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، ولكنه أمر غيبي مستور لا يظهر إلى الخلق لئلا ينقطعوا إليهم فينسون ربهم عز وجل، وإنما حصل ذلك لأهل التصرف ببركة النبي صلى الله عليه وسلم فكل ذلك معجزاته عليه الصلاة والسلام.اهـ.

وذكر شهاب الدين السجاعي في رسالته في إثبات كرامات الأولياء (بذيل شفاء السقام) للإمام السبكي أن العلامة اللقاني قال في شرح جوهرته: قال العلامة النسفي في عقائده: كرامات الأولياء حق فتظهر الكرامة على طريق نقض العادة للولي من قطع المسافة البعيدة في المدة القليلة، وظهور الطعام والشراب واللباس عند الحاجة، والمشي على الماء وفي الهواء، وكلام الجماد والعجماوات وغير ذلك، ويكون معجزة للرسول الذي ظهرت الكرامة لواحد من أمته، لأنه ظهر بها أنه ولي، ولا يكون وليا إلا إذا كان محقا في ديانته برسالة رسوله.اهـ.

وقد أقره شارحه سعد الدين وغيره من أئمة أهل السنة أسعدهم الله.هـ كلام شهاب الدين.

وفى حاشية نفحات القرب والاتصال لشيخ الإسلام الحموي بذيل "شفاء السقام" قال الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله في لطائف المنن: اعلم أن قدرة الله التي لا يكثر عليها شيء هي التي أظهرت الكرامة في هذا الولي فلا ينظر إلى ضعف العبد ولكن ينظر إلى قدرة السيد، فجحد الكرامة جحد لقدرة الله سبحانه وتعالى. وربما كان سبب إنكارك الكرامات استكثارا على ذلك العبد الذي أضيفت الكرامة إليه، وذلك العبد ما ظهرت عليه الكرامة إلا وهي شاهدة بصدق متبوعه، فهي بالنسبة إلى من ظهرت ببركة متابعته معجزة، فلذلك قالوا: "كل كرامة لولي فهي معجزة لذلك النبي الذي هذا الولي تابع له"، فلا ينظر إلى التابع ولكن ينظر إلى عظم قدر المتبوع.

وبالجملة فإن جميع خوارق العادات من المعجزات جائز وقوع مثلها كرامات للأولياء مطلقا، لأنها ناشئة من الله تعالى بفعله وإرادته.هـ.

واعلم وقفنا الله تعالى وإياك أن من سادتنا الأولياء رضي الله عنهم ونفعنا ببركتهم أبدالا ونجباء وأقطابا إلى غير ذلك من المراتب, وأن الله تعالى يصرف بهم العذاب عن الناس، وينصر بهم المسلمين على الأعداء، ويسقي بهم الغيث، وقد اشتهر هذا الأمر ونص عليه كبار الصالحين الذين لا تحوم الشكوك في صدقهم وأمانتهم وإخلاصهم لله تعالى، والذين هم من خيار عباد الله وكرام هذه الأمة ولكني لن أعتمد هنا على أقوالهم لكثرة إنكار الجهلة في هذا العصر على الأولياء ولكني أعتمد على الأحاديث الشريفة.

وقد ألف الحافظ السيوطي في ذلك رسالة ابتدأها بقوله: بلغني من بعض من لا علم عنده إنكار ما اشتهر عن السادة الأولياء من أن منهم أبدالا ونقباء ونجباء وأوتادا وأقطابا، وقد وردت الأحاديث والآثار بإثبات ذلك فجمعتها في هذا الجزء لتستفاد ولا يعول على إنكار أهل العناد وسميته "الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال".هـ كلامه.

وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد الله بن صفوان قال: قال رجل يوم صفين: اللهم العن أهل الشام، فقال له علي: لا تسب أهل الشام جما غفيرا فإن بها الأبدال فإن بها الأبدال فإن بها الأبدال.

وروى الإمام أحمد عن شريح بن عبيد قال: ذكر أهل الشام عند علي وهو بالعراق فقالوا: العنهم يا أمير المؤمنين. قال: لا، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (البدلاء بالشام وهم أربعون رجلا كلما مات رجل أبدل الله رجلا مكانه، يستسقى بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب).

رجاله رجال الصحيح غير شريح بن عبيد، وهو ثقة، وقد سمع من المقداد وهو أقدم من علي كرم الله وجوههم. مجمع الزوائد (ج10، ص62).

وفى مجمع الزوائد (ج2، ص30) أن البزار روى برجال ثقات عن جابر أن بني سلمة قالوا: يا رسول الله أنبيع دورنا ونتحول إليك فإن بيننا وبينك وادا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اثبتوا فإنكم أوتادها وما من عبد يخطو إلى الصلاة خطوة إلا كتب الله له بها أجرا).

وروى الطبراني بسند حسن عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لن تخلو الأرض من أربعين رجلا مثل خليل الرحمن، فبهم تسقون وبهم تنصرون، ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر).

قال سعيد: وسمعت قتادة يقول: لسنا نشك أن الحسن منهم. مجمع الزوائد (ج10، ص63).

وروى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الأبدال في هذه الأمة ثلاثون مثل خليل الرحمن عز وجل كلما مات رجل أبدل الله تعلى مكانه رجلا). رجاله رجال الصحيح غير عبد الواحد بن قيس وقد وثقه العبادي وأبو زرعة. مجمع الزوائد (ج10، ص62).

وذكر الحافظ السيوطي أن الطبراني روى عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (خيار أمتي في كل قرن خمسمائة والأبدال منهم أربعون فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأربعون، كلما مات رجل أبدل الله من الخمسمائة مكانه وأدخل من الأربعين مكانه)، قالوا: يا رسول الله دلنا على أعمالهم، قال: (يعفون عمن ظلمهم ويحسنون إلى من أساء إليهم ويتواسون فيما آتاهم الله).

وروى الإمام أحمد في الزهد عن ابن عباس قال: ما خلت الأرض بعد نوح من سبعة يدفع الله بهم عن أهل الأرض.

وذكر الحافظ السيوطي عن أبي نعيم أنه روى عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن لله عز وجل في الخلق ثلاثمائة قلوبهم على قلب آدم عليه السلام ولله في الخلق أربعون قلوبهم على قلب موسى عليه السلام ولله في الخلق سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام، ولله في الخلق خمسة قلوبهم على قلب جبريل عليه السلام، ولله في الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل عليه السلام، ولله في الخلق واحد قلبه على قلب إسرافيل عليه السلام... الحديث وفيه: فبهم يحيي ويميت ويمطر وينبت ويدفع البلاء.

قيل لعبد الله بن مسعود: وكيف بهم يحيي ويميت؟ قال: لأنهم يسألون الله إكثار الأمم فيكثرون، ويدعون على الجبابرة فيقصمون، ويستسقون فيسقون، ويسألون فتنبت الأرض، ويدعون فيدفع بهم أنواع البلاء. أخرجه ابن عساكر.

وروى الإمام أحمد وأبو داود وابن أبي شيبة في مصنفه وأبو يعلى والحاكم والبيهقي عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من المدينة هاربا إلى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام ويبعث إليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال أهل الشام وعصائب أهل العراق فيبايعونه).

وروى الشيخ نصر المقدسي بسنده عن الإمام أحمد أنه قيل له: هل لله في الأرض أبدال؟ قال: نعم. قيل: من هم؟ قال: إن لم يكن أصحاب الحديث هم الأبدال فما أعرف لله أبدالا. وقال بعض العارفين: إن القطب هو الواحد المذكور في حديث ابن مسعود أنه على قلب إسرافيل، ومكانه من الأولياء كالنقطة في الدائرة التي هي مركزها به يقع صلاح العالم.هـ من القول الدال للحافظ السيوطي.

وذكر الحافظ أن الأحاديث الدالة على وجود الأبدال وغيرهم من الأولياء رويت مرفوعة أو موقوفة عن عمر وعلي وأنس وحذيفة وعبادة وابن مسعود وابن عباس وابن عمر ومعاذ وأبي هريرة وأبي الدرداء وأبي سعيد الخدري وعوف ابن مالك ووائلة بن الأسقع وأم سلمة رضي الله عنهم.

ووردت مرسلة عن الحسن وعطاء وغيرهما، ومن الآثار عن التابعين ومن بعدهم ما لا يحصى.

وفى شرح المناوي على الجامع الصغير أن حديث عبادة بن الصامت صحيح الإسناد وكذلك حديث عوف بن مالك. وقال السيوطي عازيا لليافعي: إنما سمي الأبدال أبدالا لأنهم إذا غابوا تبدل مكانهم صور روحانية تخلفهم.

وللسيوطي رسالة في تطور الولي في "الحاوي للفتاوي" أثبت فيها أن من كرامات الأولياء ظهورهم في صور متعددة في وقت واحد، وظهورهم في أمكنة متعددة في وقت واحد؛ وذكر أدلة ذلك وعزا إمكانه ووقوعه إلى جماعة كبيرة من علماء الأمة من بينهم السبكي، والقونوي، واليافعي، وابن عطاء الله، وابن الملقن، والمنوفي، والشيخ خليل صاحب المختصر في الفقه المالكي، وخلق آخرون؛ وقد أطال الشيخ خليل في إثبات ذلك في كتابه الذي ألفه في مناقب شيخه الشيخ عبد الله المنوفي رحمهما الله تعالى.

وكما تظهر كرامات الأولياء في حياتهم فإنها تظهر أيضا بعد وفاتهم.

وقد رأينا أن أحد عباد الله الصالحين كان يقرأ سورة الملك في قبره وسمعه أحد الصحابة. ورأينا أن الأرض لم تأكل جسد والد جابر رضي الله عنهما.

وورد في الأحاديث الشريفة اهتمام الموتى بالأحياء وخطابهم لهم، كما ورد خطاب الأحياء للموتى. وورد أن الميت يعرف زواره، وأن الموتى يسألون عن الأحياء ويعرفون أقوالهم وأفعالهم، وأن الأعمال تعرض على الأقارب فيسرون بالحسن منها ويحزنون لغيره.

قال ابن القيم في كتاب "الروح":

قال ابن عبد البر: ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما من مسلم يمر على قبر أخيه كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام). وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه.

وروى ابن أبي الدنيا بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم). وروى ابن أبي الدنيا أيضا بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام. وقد ثبت في الصحيح أن الميت يستأنس بالمشيعين لجنازته بعد دفنه، ثم ذكر حديث مسلم عن وفاة عمرو بن العاص رضي الله عنه. وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر بقتلى بدر فألقوا في قليب ثم جاء حتى وقف عليهم وناداهم بأسمائهم يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فإني وجدت ما وعدني ربي حقا. فقال له عمر: يا رسول الله ما تخاطب من أقوام قد جيفوا، فقال: (والذي بعثني بالحق ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون جوابا).هـ.

وروى أبو داود الطيالسي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أعمالكم تعرض على عشائركم وأقاربكم في قبورهم...) الحديث.

وفى كتاب "الروح" لابن القيم أن عبد الله بن المبارك روى عن أبي أيوب قال: تعرض أعمال الأحياء على الموتى فإذا رأوا حسنا فرحوا واستبشروا وإن رأوا سوءً قالوا: اللهم راجع به.

وروى ابن أبي الدنيا عن عبيد بن عمير قال: أهل القبور يتوكفون الأخبار فإذا أتاهم الميت قالوا: ما فعل فلان، فيقول: صالح. ما فعل فلان؟ يقول: صالح، ما فعل فلان؟ فيقول: ألم يأتكم أو ما قدم عليكم؟ فيقولون: لا، فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون سلك به غير سبيلنا.

وقال سعيد بن المسيب: "إذا مات الرجل استقبله والده كما يستقبل الغائب". ومثل هذا لا يقال بالرأي، فهو في حكم المرفوع، وعن أبي أيوب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير في الدنيا فيقولون: أنظروا أخاكم حتى يستريح فإنه كان في كرب شديد، فيسألونه: ما ذا فعل فلان؟ وما ذا فعلت فلانة؟ وهل تزوجت فلانة؟ فإذا سألوه عن رجل مات قبله قال: إنه قد مات قبلي، قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية، فبئست الأم وبئست المربية. هـ كلام ابن القيم.

وقد وردت الأحاديث الكثيرة والآثار عن السلف الصالح بدعاء الأموات في قبورهم وبنصحهم للأحياء وتمنيهم الخير لهم.

وقد التقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأنبياء عليهم السلام وصلى بهم في بيت المقدس وكان من شأنه معهم ليلة الإسراء ما هو مشهور، وصح حديث الشهيد الذي سأل الله تعالى أن يعيده إلى الحياة ليقتل ثانية في سبيل الله تعالى.

وقد سأل الشهداء ربهم عز وجل أن يخبرنا عنهم بما لقوا من الكرامة ففعل، فله الحمد والمنة.

ويكفي ما ورد في القرآن العظيم عن عبد الله الصالح الذي أخبر تعالى عنه أنه قال لما أدخل الجنة: (يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27))، وقد استفاضت أقاويل العلماء بتصرف الأولياء بعد مماتهم كحالهم في حياتهم بإذن الله تعالى كرامة لهم من ربهم.

قال ابن القيم في كتاب "الروح": تواترت الرؤيا من أصناف بني آدم على فعل الأرواح بعد الموت ما لا تقدر على فعله بعد اتصالها بالبدن من هزيمة الجيوش الكبيرة بالعدد القليل ونحو ذلك، وقد رئي النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر في النوم قد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلام فإذا بجيوشهم مغلوبة مكسورة مع كثرة عددهم وضعف المسلمين وقلتهم.

وقد شاهدت أنا بنفسي من ذلك والحمد لله تعالى - من شفاء الأمراض المزمنة وتفريج الكروب بإذن الله تعالى كرامة لعباده الصالحين من الأموات - ما يدل على أنه لا يزال في أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كثير من الخير والبركة والنور.

وقد ذكر ابن القيم في كتاب "الروح" من الروايات عن السلف الصالح والمرائي المتواترة بتصرف الأولياء في قبورهم جملة وافرة، وقال إنه لم يحاول الحصر ولا يستطيع وقال: وهذه المرائي وإن لم تصح بمجردها لإثبات مثل ذلك فهي على كثرتها، وأنها لا يحصيها إلا الله، فقد تواطأت على هذا المعنى وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أرى رؤياكم قد تواطأت على أنها في العشر الأواخر) يعنى ليلة القدر فإذا تواطأت رؤيا المؤمنين على شيء كان كتواطؤ روايتهم له، وكتواطؤ رأيهم على استحسانه واستقباحه، وما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رأوه قبيحا فهو عند الله قبيح.

وقد أورد ابن القيم مرائي كثيرة جدا تدل على معرفة الموتى لأحوال أهل الدنيا وتصرفهم فيها، بعضها عن الصحابة رضي الله عنهم وبعضها عن غيرهم، فمما أورد عن الصحابة وصية ثابت بن قيس رضي الله عنه المشهورة، وهي كما رواها الحافظ ابن عبد البر بسنده وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: (يا ثابت أما ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة). فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد إلى مسيلمة فثبت حتى قتل وعليه

درع له نفيسة فمر به رجل من المسلمين فأخذها، فبينما رجل من المسلمين نائم إذ أتاه ثابت في منامه فقال له: أوصيك بوصية فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه، إني لما قتلت أمس مر بي رجل من المسلمين فأخذ درعي، ومنزله في أقصى الناس، وعند خبائه فرس يستن في طوله، وقد كفا على الدرع برمة، وفوق البرمة رحل فائت خالدا فأمره أن يبعث إلى درعي فيأخذها، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. - يعني أبا بكر الصديق- فقل له إن علي من الدين كذا وكذا وفلان من رقيقي عتيق وفلان، فأتى الرجل خالدا فبعث إلى الدرع فأتى بها وحدث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته، قال: ولا نعلم أحدا أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس رحمه الله. فقد اتفق خالد وأبو بكر الصديق والصحابة معه على العمل بهذه الرؤيا وتنفيذ الوصية بها وانتزع الدرع ممن هي في يده وهذا محض الفقه.هـ.

وذكر أيضا أن سلمان الفارسي، وعبد الله بن سلام رضي الله عنهما قال أحدهما للآخر: إن مت قبلي فالقني فأخبرني، وإن أنا مت قبلك لقيتك فأخبرتك، فكان ذلك.

ومثل ذلك عن الصعب بن جثامة وعوف بن مالك رضي الله عنهما ومات صعب أول فأخبر عوفا بما وقع بعده في أهله حتى هرة لهم ماتت وأخبره أن ابنته أي ابنة الصعب ستموت في ستة أيام وأوصاه بها خيرا، وأن ليهودي عليه عشرة دنانير وأمره بقضائها وأنها في صرة في موضع عينه له فكان ما أخبره به مطابقا للواقع.

وذكر أن سماك بن حرب ذهب بصره فرأى الخليل عليه السلام في المنام فمسح على عينيه وقال: اذهب إلى الفرات فتغمس فيه ثلاثا. ففعل فأبصر.

وقال عبيد الله بن أبي جعفر: اشتكيت شكوى فجهدت منها فكنت أقرأ آية الكرسي فنمت فإذا رجلان بين يدي فقال أحدها لصاحبه: آية فيها ثلاثمائة وستون رحمة أفلا يصيب هذا المسكين فيها رحمة واحدة، فاستيقظت فوجدت خفة.

وقال العلامة گنون في حاشيته على مختصر خليل عند قوله في النذر: "إنما يلزم به ما ندب...": قال الشيخ زروق رضي الله عنه: اعلم أن روح الإسلام حب الله تعالى وحب رسوله صلى لله عليه وسلم وحب الآخرة وحب الصالحين من عباده. وعنه عن شيخه الحضرمي قال: رأى بعض الصالحين سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم في المنام فسأله عن أفضل الأعمال فقال عليه السلام: وقوفك بين يدي ولي من أولياء الله تعالى قدر حلب شاة أو ناقة. قال: قلت حيا أو ميتا؟ قال صلى الله عليه وسلم: حيا كان أو ميتا.

وقال أبو نعيم في الحلية: أفضل ما تعبد به المتعبدون التحبب إلى أولياء الله تعالى بما يحبون، وإن علامة محبة الله محبة أوليائه. وعن سيدي عبد الرحمن الثعالبي بسنده إلى الإمام الطبري قال: مات غريب عندنا بمكة فأخرجناه إلى باب المعلاة وجلسنا لإصلاح دفنه فاستوى جالسا، قلنا: ألست قدْ مِتَّ؟ قال: بلى، ولكن رجعت لأحدثكم وأبشركم، أنفع ما عندنا محبة الصالحين وموالاتهم. ثم رجع ميتا.

ولما ذكر الشيخ أبو المحاسن في بعض أجوبته قوله صلى الله عليه وسلم للسائل حيث سأله عن أفضل الأعمال: (جلوسك بين يدي ولي ولو بقدر حلب شاة...) الخ؛ قال: وإن كان في هذا بحث فهو مؤيد بالنصوص، وقد ذكره الإمام الغزالي وغيره وأثبتوه في كتبهم وصيروه دليلا.هـ.

وقال ابن مرضون: اعلم أن التوسل بأولياء الله عموما سبب في قضاء الحوائج ونيل الكرامات وكذلك التوسل بأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم لكرامتهم عند الله تعالى فما

بالك بمن اجتمع فيه الوصفان كسيدي عبد القادر الجيلاني وكالشيخ القطب الغوث الجامع سيدي عبد السلام بن مشيش الحسني رضي الله عنه ونفعنا ببركته آمين، فالتوسل به والدعاء عند قبره رضي الله عنه مجرب النجاح والإجابة بفضل الله تعالى ولله در القائل:

وَاطْلُبْ بِسِرِّ ابْنِ مُشِيشٍ مَا تُرِيدْ تَنَالُهُ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكَ بَعِيدْ

وفي طالع الأماني ما نصه: قال الفقيه راشد: ويجوز أن ينتفع الحي من الميت بزيارته ويطلب من الله قضاء حاجته فمن أراد أن تقضى حاجته فليخرج إلى باب عجيمة إلى قبر سيدي محمد بن الحسن ويدعو الله بإزاء قبره فتقضى حاجته، وقد جربناه فوجدناه صحيحا وتكون الزيارة عشية يوم الخميس، كذا رويناه.هـ.

وذكر الفندلاوي في كتابه المستفاد أن الدعاء مستجاب عند قبر الشيخ الشهير والقطب العالم الكبير أبي جيدة بن أحمد اليزغيشني دفين باب المسافرين المتوفى سنة بضع وستين وثلاثمائة ولم تزل الفقهاء والطلبة ممن يقتدى بهم ملازمين لزيارة قبره رضي الله عنه ونفعنا ببركته في الدارين.

ولما تكلم الشيخ زروق في قواعده على زيارة المقابر قال: كل من يجوز التبرك به في حياته يجوز التبرك به بعد موته، كذا قال الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه في كتاب آداب السفر، قال: ويجوز شد الرحال لهذا الغرض، ولا يعارضه حديث "لا تشد الرحال إلا للمساجد الثلاثة"، لتساوي المساجد في الفضل دون الثلاثة، وتفاوت العلماء والصلحاء في الفضل، فتجوز الرحلة من الفاضل للأفضل، ويعرف ذلك من كراماته وعلمه وعمله سيما من ظهرت كرامته بعد موته مثلها في حياته أو أكثر منها في حياته كأبي يعزى، أو من جرب إجابة الدعاء عند قبره وهو غير واحد في أقطار الأرض وقد أشار إليه الشافعي رضي الله عنه حيث قال: قبر موسى الكاظم الترياق المجرب. وكان شيخنا أبو عبد الله القوري رحمه الله يقول: إذا كانت الرحمة تنزل عند ذكرهم فما ظنك بمواطن اجتماعهم على ربهم ويوم قدومهم عليه بالخروج من هذه الدار، وهو يوم وفاتهم فزيارتهم فيه تهنئة لهم وتعرض لما يتجدد من نفحات الرحمة عليهم فهي إذن مستحبة إن سلمت من محرم أو مكروه بين في أصل الشرع كاجتماع النساء وتلك الأمور التي تحدث هناك.

وذكر الشيخ الإمام أبو عبد الله بن النعمان في كتابه سفينة النجاة ما نصه: تحقق ذوو البصائر والاعتبار أن زيارة قبور الصالحين والتشفع بهم معمول به عند علمائنا المحققين من أئمة الدين.هـ.

فمن أراد حاجة فليتوسل بهم إلى الله تعالى فإنهم الواسطة بين الله وخلقه وليقدم على ذلك التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم كما قال أبو عبد الله بن الحاج في المدخل: وزيارتهم في الحقيقة مواصلة للنبي صلى الله عليه وسلم وكذا التوسل بهم فاستحضر هذا المعنى عند زيارتهم والتوسل بهم يكمل حالك وتحصل آمالك.

وفي بعض أجوبة الشيخ أبي المحاسن رضي الله عنه: المعروف عند المحققين وأرباب القلوب من العلماء المهتدين ولا مخالف في ذلك أن زيارة الأولياء والعلماء رضي الله عنهم مواصلة له صلى الله عليه وسلم إذ كل خير وبركة قلت أو جلت منه حصلت وبطلعته ظهرت وكيف لا وسائر العلماء والأولياء رضي الله عنهم صور تفصيله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه ومظاهر تعييناته فما منهم أحد إلا وهو سابح في نوره وممتد من بحوره على حسب مقامه فهو الجامع لما افترق والرسول على الإطلاق فلا زائر ولا مزور إلا له ومنه صلى الله

عليه وسلم فجميع الأولياء بل وجميع الأنبياء منسوبون إليه ومستمدون منه فلا ترى على التحقيق كرامة ولا آية ولا خرق عادة إلا وهي له صلى الله عليه وسلم.هـ.

المراد منه فباستحضار كون زيارتهم مواصلة للنبي صلى الله عليه وسلم حقيقة تكمل أحوال الزائرين وتحصل آمال الطالبين، وفي الحصن الحصين: وقد جربت استجابة الدعاء عند قبور الصالحين بشروط معروفة.هـ.

قال شارحه المحقق أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي رحمهما الله تعالى ما نصه: يعنى أن التجربة دلت على حصول الاستجابة وليس الخبر كالمعاينة. فإن قلت: فما تقول في قول القاضي ابن العربي: لا يزار قبر ينتفع به غير قبره صلى الله عليه وسلم، وكذا قول الشارمساحي: قصد الانتفاع بالميت بدعة؟ قلت: هو خلاف مذهب الجمهور وما عليه الأمة، قال شيخ شيوخنا الإمام العارف أبو زيد عبد الرحمن: لعل ما نقل عن ابن العربي ينظر إلى سد الذرائع وحسم مادة البدع المحدثة المتطرفة في ذلك ومع هذا فلا معول عليه ولا التفات إليه وعمل الأمة على خلافه والإنكار جحد للضرورات والله أعلم. ثم قال صاحب الحصن: وقال الشيخ زروق في كتابه "عدة المريد": وأما التمسك بالأموات فهو من قلة الاعتقاد في الأحياء وذلك من نقص الهمة، اللهم إلا أن يكون ذلك على سبيل التعرض لنفحات الرحمة بالزيارة لطلب الزيادة فمدد الميت أقوى من مدد الحي لأنه في بساط الحق ولأن التعلق به عري عن الأغراض والعوارض من الاستئناس ونحوه كما قال شيخنا أبو العباس الحضرمي رضي الله عنه وكرامة الله لأوليائه لا تنقطع بموتهم بل ربما زادت كما هو معلوم في كثير منهم قال: ثم ذكر رضي الله عنه فصلا بعد هذا فيما يتعلق بالتبرك بالآثار من الآداب قال فيه من ذلك - أي الآداب-: إنه لا يصلى على المقابر ولا يبنى عليها مسجدا للتبرك، ثم قال: قالوا ولا يتمسح بالقبر لأنه من فعل النصارى ولا يدهن بالماء الذي يكون عليه ولا يرفع منه ترابا لأنه حبس وفي المطروح قصدا نظر.

وفي سنن المهتدية للمواق رحمه الله: كان سيدي الفتوري رحمه الله لا يزال ينشد:

أَسْرُدْ حَدِيثَ الصَّالِحِينَ وَسَمِّهِمْ ... فَبِذِكْرِهِمْ تَتَنَزَّلُ الرَّحَمَاتُ
وَاحْضُرْ مَجَالِسَهُمْ تَنَلْ بَرَكَاتِهِمْ ... وَقُبُورَهُمْ زُرْهَا إِذَا مَا مَاتُوا

وفي كلام الشيخ ابن إسحاق سيدي إبراهيم التازي نزيل وهران أحد المشاهير المسلم لهم في العلم والعمل في وقته:

زِيَارَةُ أَرْبَابِ التُّقَى مَرْهَمٌ يُبْرِي ... وَمِفْتَاحُ أَبْوَابِ الْهِدَايَةِ وَالْخَيْرِ
وَتُحْدِثُ فِي الصَّدْرِ الْخَلِيِّ إِرَادَةً ... وَتَشْرَحُ صَدْرًا ضَاقَ مِنْ شِدَّةِ الْوِزْرِ
وَتَنْصُرُ مَظْلُومًا وَتَرْفَعُ خَامِلاً ... وَتُكْسِبُ مَعْدُومًا وَتَجْبُرُ ذَا كَسْرِ
وَتَبْسُطُ مَقْبُوضًا وَتُضْحِكُ بَاكِيًا ... وَتَرْفُدُ بِالْبَذْلِ الْجَزِيلِ وَبِالأَجْرِ

إلى أن قال:

وَكَمْ مِنْ بَعِيدٍ قَرَّبَتْهُ بِجَذْبَةٍ ... فَفَاجَأَهُ الْفَتْحُ الْمُبِينُ مِنَ الْبَرِّ
وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ أَظْفَرَتْهُ بِمُرْشِدٍ ... خَبِيرٍ بَصِيرٍ بِالْبَلاءِ وَمَا يُبْرِي

إلى أن قال:

فَزُرْ وَتَأَدَّبْ بَعْدَ تَصْحِيحِ نِيَّةٍ ... تَأَدُّبَ مَمْلُوكٍ مَعَ الْمَالِكِ الْحُرِّ
وَلا فَرْقَ فِي أَحْكَامِهَا بَيْنَ سَالِكٍ ... مُرَبٍّ وَمَجْذُوبٍ وَحَيٍّ وَذِي قَبْرِ

وقال ابن باديس في سينيته:

وَلا تَسْمَعَنْ مِنْ قاصِرِ النَّقْعِ فِيهِمُ عَلَى مَنْ يَكُنْ حَيًّا فَذَاكَ مِنَ الطُّلْسِ
فَإِنَّ شُهُودَ النَّقْعِ يَنْفِي مَقَالَهُ وَلاسِيَّمَا وَالْقَوْمُ نَصُّوا عَلَى الْعَكْسِ

فلازم زيارتهم وذكرهم ومحبتهم يفتح لك الباب ويرفع عن قلبك الحجاب فإن من شيمهم الفاضلة وأخلاقهم الكريمة، أن يقبلوا من قصدهم، ولا يخيبوا من التجأ إليهم وأحبهم، قوم كرام، لا ينكب من أقبل عليهم، ولا يضام من استند إليهم. قال العلامة ابن زكري: وفي كلب أهل الكهف أقوى شاهد لذلك. اللهم إنا نتوسل إليك بحبهم فإنهم أحبوك وما أحبوك حتى أحببتهم، فبحبك إياهم وصلوا إلى حبك، ونحن لم نصل إلى حبهم فيك إلا بحظنا منك فتمم لنا ذلك مع العافية الشاملة التامة الكاملة حتى نلقاك يا أرحم الراحمين.هـ كلام گنون.

وكلام العلماء في تصرف الأولياء بعد مماتهم أكثر من أن يحصر فمن أراد طرفا منه فلينظر "كتاب نفحات القرب والاتصال بإثبات التصرف لأولياء الله تعالى والكرامة بعد الانتقال" لشيخ الإسلام الحسيني الحموي (مطبوع بذيل "شفاء السقام في زيارة خير الأنام صلى الله عليه وسلم" للإمام السبكي).

واعلم أن أولياء الله تعالى قد خصهم الله تعالى بكثير من الذكر الجميل والوصية عليهم في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم.

فقال تعالى في الحديث القدسي إن من عاداهم فقد آذنه بالحرب، كما في الحديث الصحيح. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه...) الحديث.

وروى البخاري ومسلم عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره).

وروى الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء ابن مالك). وقد حفظ المسلمون للبراء هذه المكرمة والتجأوا إليه ليقسم لهم على ربه ففعل فأبره ربه تبارك وتعالى.

فروى الحاكم في المستدرك وصححه وسلمه الذهبي وقال الحافظ السيوطي في الخصائص إنه رواه الترمذي والبيهقي أيضا.

عن أنس بعد ذكر الحديث السابق: أن البراء لقي زحفا بتستر فانكشف المسلمون فقالوا له: يا براء إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لو أقسمت على الله لأبرك، فأقسم على ربك، قال: أقسم عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، فمنحوا أكتافهم، ثم التقوا على قنطرة السوس فأوجعوا في المسلمين، فقالوا: أقسم على ربك يا براء. قال: أقسم عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وألحقني بنبيك؛ ثم حملوا فانهزم الفرس وقتل البراء شهيدا.

ولنقتصر على ما تقدم من كرامات الأولياء فإنها بحر لا ساحل له وقد ألف فيها القدماء والمحدثون تآليف لا تحصى كثرة، وقد طبع منها الكثير.

ومما ألف فيها في بلاد الصحراء الشنقيطية (موريتانيا) "كرامات الولي ناصر الدين " للولي العالم محمد اليدالي ذكر فيه نبذة من كرامات الإمام ناصر الدين الديماني، و"كرامات أولياء الزوايا" للعلامة والد ابن خالنا الديماني ذكر فيه كرامات كثيرة لأحمد بازيد بن يعقوب اليعقوبي وديمان وأبنائه وغيرهم من الأولياء، و"ذات ألواح ودسر" للعلامة سيد أحمد بن أسمه الديماني، و"الدر الخالد في مناقب الوالد" لسيد بن سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي، و"الطرائف والتلائد في كرامات الوالدة والوالد" للشيخ سيد محمد بن الشيخ سيد المختار الكنتي، و"الضياء المستبين في كرامات الشيخ محمد فاضل بن مامين" لمحمد فاضل اليعقوبي.

وقد ذكر الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل في كتبه وبالخصوص "نعت البدايات" كثيرا من كراماته هو وكرامات والده. وذكر الشيخ سعد بوه بن الشيخ محمد فاضل في كتبه مثل "النفع العميم في فضل (بسم الله الرحمن الرحيم)" وغيره كرامات من كراماته هو وكرامات إخوته ووالده.

وذكر العلامة الشاعر المفوه محمد عبد الله بن البخاري بن الفلالي اليعقوبي ثم البركي كرامات والده البخاري وشيخ والده المجيدري بن حبيب الله وأخي والده في الشيخ محمد بن سيد محمد الشريف التيشيتي، وذكر غير ذلك من كرامات أعمامه وغيرهم في كتاب له في ذلك وعنوانه "الحياة العمرانية" ويسميه بعض المؤرخين "كتاب الآبار". وفي "فتح الشكور في علماء التكرور" للبرتلي كرامات كثيرة للمترجم لهم.

وللعلامة بَلاَّهِ بن عبد القادر بن محمد بن محمد سالم كتاب في مناقب أبيه وجده وفيه بعض الكرامات. وذكر العلامة بَدِّ العلوي كرامات شيخه في كتابه "نزهة المستمع واللافظ في مناقب الشيخ محمد الحافظ".

وذكر العلامة سيد أحمد بن أسمه الديماني كثيرا من كرامات الولي المجاهد في سبيل الله تعالى محيي السنة المطهرة خديم رسول الله صلى الله عليه وسلم/ الشيخ أحمد بمبه السنغالي في كتابه "المقولات في الحادثات" وفي غيره من كتبه الكثيرة. وللمختار ابن دنگي اليدالي نظم المدافن ذكر فيه جملة من كرامات الشمشويين المدفونين ببلاد القبلة خاصة.

وللمؤرخ المدقق المرحوم هارون بن الشيخ سيديا كتاب حافل في تاريخ جده الشيخ سيديا الكبير ذكر فيه كثيرا من كرامات الأولياء من جميع القبائل الصحراوية.

وثم أولياء كبار مشهورون بالكرامات تواترت كراماتهم وصحت أخبارهم، بعضهم دونت سيرته تدوينا غير كاف مثل الشيخ محمد المام اليعقوبي البركي، ومحمذ فالا بن متالي التندغي. وبعضهم لم تدون سيرتهم إطلاقا مثل الصغرى بنت المسك التندغية، ومرابط مكة الأبياري، وبلال الولي، وآمنة بنت يوسف وغيرهم كثير نفعنا الله ببركاتهم وفرج كروبنا وحقق لنا رجاءنا بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وجاههم.

وقبل أن أنهي هذه المقدمة أود أن أعرج على كرامة عظيمة، أكرم الله تعلى بها آحادا من أوليائه الكرام، وهي رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة.

وقد صرح بها آحاد منهم ممن لا تلحقهم التهمة ولا تحوم حول جنابهم الشكوك مثل سيدي أبي الحسن الشاذلي، وسيدي عبد العزيز الدباغ، وسيدي الشيخ سيد أحمد التجاني، والشيخ محمد المام، ومثل صاحبنا الذي نحن في ترجمته وهو شيخنا غوث الزمان خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم الشيخ أحمد بنبه.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين وغيرهم: (من رآني في المنام فسيراني في اليقظة) وهذا الحديث الصحيح ينبغي حمله على ظاهره وإطلاقه، إذ لا يمنع من ذلك عقل ولا نقل ولم يرد ما يقيده فلا ينبغي تأويله جريا مع العادة. فإن الله تعالى قادر على ذلك، والنبي صلى الله عليه وسلم حي في قبره مثل جميع الأنبياء عليهم السلام.

وقد ذكرت في "كتاب التبرك برسول الله صلى الله عليه وسلم والتوسل به إلى الله عز وجل وبالصالحين" أدلة المعارضين وردها، فلن أطيل بها هنا، ولكني أورد كلام العلامة المحدث الكبير الشيخ محمد حبيب الله بن مايابى الجكني الشنقيطي فقد لخص المسألة تلخيصا جيدا.

قال الشيخ محمد حبيب الله في شرح زاد المسلم (ج3، ص185): الذي يتحصل من كلام المحققين، هو أن رؤيته عليه الصلاة والسلام في اليقظة ممكنة شرعا وعقلا، ولا وجه لإنكارها ولا تخصيصها برؤية المثال مع أن ظواهر الأحاديث تدل على إمكانها ووقوعها لمن خصه الله تعالى بها. وألف فيها السيوطي "رسالة تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك"، قال في آخرها: فحصل من مجموع هذه النقول والأحاديث أن النبي صلى الله عليه وسلم حي بجسده وروحه، وأنه يتصرف ويسير حيث شاء في أقطار الأرض وفي الملكوت، وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته ولم يتبدل منه شيء، وأنه مغيب عن الأبصار كما غيبت الملائكة مع كونهم أحياء بأجسادهم فإذا أراد الله رفع الحجاب عمن أراد إكرامه برؤيته صلى الله عليه وسلم رآه على هيئته التي هو عليها، لا مانع من ذلك ولا داعي للتخصيص برؤية المثال. انتهي منه بلفظه. وهذا هو الحق عند العلامة المحقق شهاب الدين الهيثمي في فتاويه الحديثية، فقد سئل: هل تمكن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة؟ فأجاب: أنكر ذلك جماعة وجوزه آخرون، وهو الحق فقد أخبر بذلك من لا يتهم من الصالحين. وفي شرح العارف ابن أبي جمرة للأحاديث التي انتقاها من البخاري ترجيح بقاء الحديث على عمومه في حياته ومماته لمن له أهلية باتباعه للسنة. وأكثر ما يقع ذلك للعامة قبل الموت عند الاحتضار فلا تخرج روحه من جسده حتى يراه صلى الله عليه وسلم وفاء بوعده، وأما غيرهم فيحصل لهم ذلك قبل ذلك بقلة أو كثرة بحسب تأهلهم وتعلقهم واتباعهم للسنة إذ الإخلال بها مانع كبير. وفي صحيح مسلم أن عمران بن حصين رضي الله عنه كانت تسلم عليه الملائكة وفي رواية البيهقي: كانت الملائكة تصافحه. وفي "المنقذ من الضلال" للغزالي في الحديث عن الصوفية: هم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد. وقال تلميذه ابن العربي: ورؤية الأنبياء والملائكة وسماع كلامهم ممكن للمؤمن كرامة، وللكافر عقوبة. وفي المدخل لابن الحاج المالكي: رؤيته صلى الله عليه وسلم في اليقظة باب ضيق وقل من يقع له ذلك إلا من كان على صفة عزيز وجودها في هذا الزمان، بل عدمت غالبا مع أننا لا ننكر على من يقع له هذا من الأكابر الذين حفظهم الله في ظواهرهم وبواطنهم. وقال البارزي: وقد سمع من جماعة من الأولياء في زماننا وقبله أنهم رأوا النبي صلى الله عليه وسلم يقظة حيا بعد وفاته. ونقل اليافعي وغيره عن الشيخ الكبير أبي عبد الله القرشي أنه وقع غلاء بمصر كبير، فتوجه للدعاء برفعه، فقيل له: لا تدع فلا يسمع لأحد منكم في هذا الأمر دعاء. فسافرت إلى الشام فلما وصلت إلى قريب من ضريح الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام تلقاني الخليل فقلت: يا رسول الله، اجعل ضيافتي عندك الدعاء لأهل مصر! فدعا لهم ففرج الله عنهم. قال اليافعي: فقوله "تلقاني الخليل" قول حق لا ينكره إلا جاهل بمعرفة ما يرد عليهم من الأحوال التي يشاهدون فيها ملكوت السماوات والأرض وينظرون إلى الأنبياء أحياء غير أموات كما نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى جماعة من الأنبياء وسمع خطابهم. وحكى ابن الملقن في طبقات الأولياء أن الشيخ عبد القادر الجيلاني قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم قبل الظهر فقال لي: يا بني لم لا تتكلم؟ فقلت: يا أبتاه أنا رجل أعجمي، كيف أتكلم على فصحاء بغداد؟ فقال لي: افتح فاك ففتحته فتفل فيه سبعا وقال تكلم على الناس، وادع إلى

سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة. فصليت الظهر وجلست وحضرني خلق كثير فأرتج عَلَيَّ فرأيت عليا قائما بإزائي في المجلس فقال: يا بني لم لا تتكلم؟ فقلت: يا أبتاه قد أرتج علي. فقال: افتح فاك. ففتحته، فتفل فيه ستا. فقلت: ولم لا تكملها سبعا؟ قال: أدبا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم توارى عني فتكلمت. ورأيت ابن العربي صرح بأنه لا يمتنع رؤية ذات النبي صلى الله عليه وسلم بروحه وجسده لأنه وسائر الأنبياء أحياء، رد الله إليهم أرواحهم بعد ما قبضوا. وقال في جواب قبل ذلك بورقتين قال صاحبه: هل يمكنك الآن الاجتماع بالنبي صلى الله عليه وسلم والتلقي منه في اليقظة؟: نعم، يمكن ذلك. فقد صرح بأن ذلك من كرامات الأولياء الغزالي، والبارزي، والتاج السبكي، والعفيفي من الشافعية، والقرطبي، وابن أبي جمرة من المالكية انتهى كلامه. قلت: إذا علمت ما قررناه من إمكان رؤيته صلى الله عليه وسلم في اليقظة؛ إذ لم يرد شيء صحيح ينافي ذلك، بل ظواهر الأحاديث تدل على جوازه فاعلم أنه لا يجوز أن يثبت بالرؤية حكم شرعي كائنا ما كان فطريق الأحكام النقل فقط، فلم يبق بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلا اتباع النصوص الثابتة عنه صلى الله عليه وسلم في حياته، وقد انقطع التشريع بعد وفاته صلى الله عليه وسلم انقطاعا لا استثناء فيه. انتهي كلام الشيخ محمد حبيب الله بن مايابى.

ونقل الشيخ محمد حبيب الله قبل هذا بقليل، أن الحافظ ابن حجر نقل كلام ابن أبي جمرة السابق من أن جماعة من الصالحين رأوه يقظة ثم قال: وهذا مشكل جدا إذ لو حمل على ظاهره لكانوا صحابة.

وذكر أن القرطبي أنكر رؤية اليقظة، ثم عاد فقال إن ابن أبي جمرة تفطن لهذا الإشكال فأحال المسألة إلى كرامات الأولياء.

فإن يكن كذلك تعين العدول عن العموم في كل راء.

وقول الحافظ: "إذ لو حمل على ظاهره لكانوا صحابة" غير مسلم فقد أجاب الهيثمي بأن شرط الصحبة هو الرؤية العادية في عالم الملك.

والقرطبي الذي أنكر الرؤية يقظة هو أبو العباس أحمد بن عمر صاحب "المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم"، وهو شيخ القرطبي صاحب التفسير وصاحب التذكرة بأمور الآخرة وهذا الأخير سبق أنه ممن قالوا بإمكان رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة (انظر لذلك كله شرح زاد المسلم (ج3، ص187) فقد رأيت أن الحافظ ابن حجر لم يمنع رؤية اليقظة بل أورد عليها استشكالا ثم عاد فأورد احتمال وقوعها على وجه الكرامة وقد ذكر في الإصابة (ج1، ص517) أنه رأى بخط العلامة تقي الدين بن دقيق العيد أن الكمال بن القديم كتب إليهم أن عمه محمد بن هبة الله بن أبي جرادة أخبره قال: قال لي الشيخ ربيع بن محمود: كنت بمسجد النبي صلى لله عليه وسلم فأتيته أستشيره في شيء فنمت فرأيته فقال لي: "أفلحت دنيا وأخرى"، ثم انتبهت فسمعته يقول لي وأنا مستيقظ؛ وذكر أشياء من هذا الجنس.هـ.

وفي الختام فإن حديث رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة لا مرية في صحته فقد رواه الشيخان وغيرهما، واللفظ للبخاري عن أبي هريرة رضي لله عنه: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان بي).

هذا خبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، فالواجب تركه على إطلاقه إذ لم يرد ما يقيده، وحمله على ظاهره إذ لا حاجة إلى تأويله. فنسأل الله تعالى بجاه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجمعنا به صلى الله عليه وسلم في مجمع المنى وتمام المراد على وجه الرضا والقبول والمحبة منه تعلى يقظة ومناما وأن يميتنا على ملته ويحشرنا في زمرة آله وأخصاء

أمته ويرزقنا دخول الجنة في جواره صلى الله عليه وسلم بلا حساب ولا عقاب ويرزقنا النظر إلى وجه الله الكريم إنه سميع مجيب.

بسم الله الرحمن الرجيم

الباب الأول

في حياة الشيخ رضي الله عنه

هو شيخ الإسلام العالم العلامة الولي الكامل المجاهد المنفق المجدد الشيخ أحمد بنبه خديم رسول الله صلى الله عليه وسلم بن محمد بن حبيب الله بن محمد الخير كما في "منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم" لنجله العالم العلامة الشيخ محمد البشير.

وذكر الشيخ محمد الأمين جوب مريد الشيخ وكاتب سره في كتابه "إرواء النديم من عذب حب الخديم" أنه أحمد بن محمد بن حبيب الله بن محمد الكبير بن حبيب الله الأول.

ولد الشيخ في بلاد السنغال في حدود سنة 1270 هجرية، كما ذكر ابنه العلامة الشيخ البشير في "منن الباقي القديم" وذكر الشيخ عبد الله دي في كتابه بالفرنسية في منفى الشيخ إلى الغابون أنه ولد سنة 1853م وهي موافقة لحدود السبعين وقد توفي الشيخ في مستهل سنة 1346، وعاش 75 أو 74 سنة قمرية وقد نظم ذلك أحدهم وهو محمد بن انبك بوص بقوله:

عُمُرٌ "عُدَّ" أوْ "عِهِ ے" ذَا صَفَاءٍ كَانَ حَقًّا مِنْ أَنْفَعِ الأَعْمَارِ

وكان والد الشيخ محمد كما في "منن الباقي القديم" عالما فقيها يرتضيه المسلمون إماما.

نشأ في قرية انبك، من بلاد بول، وهي قرية بناها جده محمد الخير، أقطعها له أمير كجور، همر انفون، وكان هذا الأمير يحب العلماء والصالحين.

أخذ هذا الشيخ أكثر علومه - فيما يبدو – من الشيخ محمد صل، من أهل بنبه وهو أكبر مشايخ "سالم" وكان هذا الشيخ عالما عاملا ثقة جليلا عند المسلمين والأمراء، وكان موصوفا بالولاية الكبرى.

وإلى بلده بنب يضاف اسم الشيخ الخديم، إذ عادة البلد أن يسمي التلاميذ أبناءهم بأسماء شيوخهم ووالديهم، أو يسمونهم إلى بلاد مشايخهم وقراهم.

توفي الشيخ محمد يوم الثلاثاء 29 محرم 1299 عن 61 سنة وكان قادري الطريقة؛ وكان محمد الخير من أهل العلم والصلاح، وهو الذي أسس قرية انبك.

وقد اشتهر عند الناس أن الشيخ أحمد بنبه من آل النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر الشيخ جوب أن الشيخ الخديم شريف من جهة أبيه وأمه، وإلى ذلك أشار العلامة بابا بن محمودا بن محنض باب بن اعبيد الديماني بقوله فيه من قصيدة له:

حُزْتَ الْخِصَالَ الَّتِي تَسْمُو الرِّجَالُ بِهَا لكِنَّهُ قَدْ كَفَاكَ الْعِلْمُ وَالشَّرَفُ

وقال العلامة العلوي محمد عبد لله بن عبيد الرحمن في "النفحات المسكية" في الحديث عن رحلته إلى مصر لشراء الكتب للشيخ إنه قال فيه نظما منه قوله:

أبي المحامدِ الشريفِ الْمَحْتِدِ ...إلخ

وأخبرني السيد الصالح المشارك في شتى العلوم بنوگ بن اليدالي بن محمودا الديماني، عن أبيه اليدالي وكان مريدا ملازما للشيخ سنين طويلة أنه سمع الشيخ مرارا يقول إن أصله شريف.

وحدث الشيخ الشريف محمد بن أحمد بن الحسن بن حماد في كتابه في "غيبة الشيخ البحرية" أنه - أي الشيخ - قال مرة لأحد الحكام النصارى: مثلي من الشرفاء لا يصافح مثلك من الكلاب. وأم الشيخ جارية الله مريم بوص من بيت علم وصلاح وكانت صاحبة كرامات.

فقد ذكر في المصدر السابق (ص15) أن الشيخ ألقاه النصارى في حفرة تتأجج نارا فأتته والدته مريم بص وأخرجته منها وقالت له: ارجع إلى عملك؛ وكان ذلك في منفاه في بلاد بعيدة جدا عن هذه السيدة. وقد توفيت هذه السيدة في عهد والد الشيخ. وذكر الشيخ جوب أن شرفها لا شك فيه، فهي من ذرية الحسن السبط رضي الله عنه.

وكذلك ذكر العلامة أحمد بن حبيب في كتابه "الأعداد" أن شرفها لا شك فيه وأنها من ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهما.

وقد تفرغ الشيخ منذ صباه لتعلم العلوم الشرعية واللغوية باجتماع همة ومواظبة لا تعرف الكلال، على مشايخ أرضه، فدرس التوحيد والفقه والنحو والأصول والتفسير والمنطق والبيان والعروض، وأخذ يبحث عن الزيادة والتعمق في تلك الفنون فعثر على علامة من أرض البيضان (موريتانيا) يسمى محمد بن محمذ الديماني ثم من أولاد سيد الفاضل، وكان سيدا صالحا وكان له موال يقطنون قرب مدرسة والد الشيخ فكان يأتيهم.

فاتصل به الشيخ فوجده بحر علم فأخذ عنه تلك العلوم، حتى تضلع منها وفاق معاصريه في العلم كما في "منن الباقي القديم" (ج1، ص186).

وكان الشيخ قويَّ الذاكرة جدا، ذكر ابنه الشيخ البشير في "منن الباقي القديم" (ص12): كنت معه ذات يوم وبيننا كتاب نظم "التسهيل" لابن بونا بطرره وشواهده، فقال: كنت أحفظ هذا الكتاب زمن قراءتي له بشواهده عن ظهر قلب، وكنت في هذه الأيام أتفقد حفظي له هل نسيت منه شيئا فإذا هو كما كان.

وكان الشيخ منذ صباه متعلقا بالإخلاص لعبادة ربه ومجاهدة نفسه والسير للوصول إلى معرفة ربه، فأخذ طريق القادرية عن أبيه أولا، لأنه كان قادريا كما كان خاله الجليل محمد بص قادريا، كما ذكر ابنه الشيخ البشير في "المنن" (ج،1 ص49) ثم ذكر في (ص158) أنه ذهب إلى الحاج كمرى في اندر وكان ممن تخرج على يد الشيخ سيديا فذهب إلى آل الشيخ فمكث معهم بريهة فلم يشف غليله، فبحث عن التجانية والشاذلية فلم يكن نصيبه من الترقية أكثر من نصيبه من الطائفة الأولى، فجدد التوبة وأقبل إلى الله بقلب منيب وتوصل برسول صلى الله عليه وسلم بالخدمة والصلاة والسنة والعمل.

وقال الشيخ البشير (ص49) إنه طاف في كثير من أنحاء أرض البيضان بحثا عن الصالحين ولقي جملة وافرة من مشايخ الطرق، فأخذ الشاذلية عن مشايخها وعمل بها ثمانية أعوام ثم أخذ التجانية عن بعض شيوخها المقدمين فعمل بها تلك المدة أو أكثر، وذكر له هذا البيت:

مَشَايِخِي سَيِّدُنَا الْجَيْلاَنِي وَالشَّاذِلِيُّ مَعَهُ التِّجَانِي

ثم قال البشير إن الشيخ اتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان من عام أيسش 1311هـ وأورد رسالة كتبها الشيخ إلى الشيخ سيديا بابا (ج1، ص179) وقال: كان آل الشيخ سيديا ذات يوم يريدون الارتحال لضرورة الماشية فتثاقل شيخنا رضي الله عنه،

فقال له بعض الناس: أيها الشيخ أنت أعلم منا فنسألك أهكذا يفعل المريدون مع أشياخهم؟ فقال رضي الله عنه: يأتيك الجواب إن شاء الله تعالى؛ وكتب إلى آل الشيخ سيديا رسالة قال فيها:

إني لست بتلميذكم والشيخ يعلم أنه ليس بشيخ لي وحرام علي أن أتعلق بأحد على وجه الأرض وذلك ليس بازدراء للمشائخ ولا استحقارا لهم إنما ذلك من وجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل علي يربيني ويرقيني وحرام علي الإدبار عنه عليه الصلاة والسلام.

ولما وصلهم الكتاب زال اللبس واتصل صفاء المودة في الله ورسوله بينهما.هـ كلام الشيخ البشير.

وذكر الشيخ البشير أيضا في "المنن" (ج1، ص56): صرح شيخنا في جواب من سأله عن شيخه أنه يأخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا واسطة.هـ.

قلت: وقد أخبرني الشيخ سيد أحمد بن اسمه، والشيخ محمد بن أدشاغ اعمر مرارا أن الشيخ كان كثيرا ما يقول لمريديه: لن يطول السند بينكم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو أنا وحدي.

وذكر الشيخ جوب أن الشيخ أخذ أولا جميع الأوراد ثم أخذ أخيرا عن النبي صلى الله عليه وسلم وأنه لا شيخ له في الطريقة إلا هو صلى الله عليه وسلم.

مناوأة الشيخ للنصارى الفرنسيين:

دأب الشيخ منذ صباه إلى أن توفاه الله تعالى على بغض النصارى وتبغيضهم ومعارضتهم لدى المسلمين، وقد أحس الاستعمار بذلك البغض الشديد وخشي من كثرة مريدي الشيخ، فأخذ يراقب الشيخ ويضيق الخناق عليه وعلى مريديه إلى أن أخذه سجينا في صفر من عام 1313هـ موافق أغسطس 1895م.

وأجلاه المستعمرون إلى أماكن مختلفة، كان آخرها جزر في البحر نائية كثيرة البعوض والحشرات والأمراض، وقل أن يأتيها سجين إلا فارق الحياة وكان المستعمرون يسجنون فيها عظماء الرجال الذين لم يستطيعوا أن يقتلوهم بالرصاص فلا يمكثون فيها إلا شهورا حتى يهلكوا.

ولكن الشيخ رضي الله عنه مكث فيها قريبا من ثمان سنين ورجع منها بصحة جيدة، ووقعت له فيها خوارق عادات وكرامات كثيرة جدا وبالغة الغرابة.

ولما أيس الاستعمار من مهادنة الشيخ له أعاده إلى الوطن في سنة 1320هـ موافق نوفمبر 1902م.

ولكن الاستعمار لم يدعه يستريح بل أخذه ثانية وغربه إلى بلاد البيضان (موريتانيا) سنة 1321هـ موافق يونيو 1903م وبقي هناك إلى سنة 1325هـ موافق مايو 1907م حيث رجع إلى وطنه وبقي تحت حصار القوى الكافرة الاستعمارية في إقامة جبرية أعواما كثيرة.

ولم يزل رضي الله عنه على وتيرة واحدة من العبادة وتربية المريدين على الدين القويم وبغض النصارى ومباعدتهم، لا يلوي على أحد، ولا يهتم بشيء سوى مرضاة ربه حتى توفي رحمه الله تعالى ونفعنا ببركته في شهر المحرم سنة 1346هـ موافق 1927م.

نبذة من أخلاقه الزكية رضي الله عنه:

لقد بلغ الشيخ أحمد بنبه ذروة من التمسك بالأخلاق الحسنة والمداومة عليها لا يصدقها إلا من بلغت عنده مبلغ التواتر لصعوبتها وعزتها.

فقد كان غاية في الجود، وبلغ الغاية في الصبر والتحمل، وبلغ الغاية في العبادة، وبلغ الغاية في الزهد.

أما عبادته فكان منقطعا لها طول دهره وقد عاهد ربه تعالى أن لا ينتقض وضوءه إلا توضأ وصلى نافلة، ولم يكن ينام إلا غِرارا، ولم يعرف له قط موضع للنوم فليس في بيوته حجرة لنومه ولا سرير بل كان يُغفي إغفاءات سريعة في محل عبادته.

وكان ليله ونهاره في الذكر والقراءة وخدمة الأضياف والمريدين، وكان ملازما للوضوء وقد تكون به الجراحات والأمراض الشديدة فكان يصر على الوضوء.

وكان يقول لمن معه: لا تكلفوا أنفسكم بمثل ما أكلف به نفسي من ترك الرخص والتمسك بالعزائم.

وكان يصوم الدهر ولا يفطر إلا أيام الأعياد، وبلغ من التحذير من الغيبة والنميمة مبلغا لا يتجاسر معه أحد على الوقوع فيهما كائنا من كان.

وأما جوده فقد بلغ مبلغ التواتر عند الخاص والعام حتى قيل إن الناس اتخذته بيت مال، فكان يعطي للشاعر وللعالم وللشريف ولمن يأتيه بمصحف شريف، ويعطي لغيرهم ممن ليست له بضاعة.

وكان يقول: "لا أقبل أن يوقع أحد بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم". فكل من ادعى النسبة إليه صلى الله عليه وسلم كان يعامله على أنها صحيحة ويكرمه.

وفي ما يلي نبذة من أخباره وأخلاقه رضي الله عنه من كتاب نجله العلامة الشيخ البشير "منن الباقي القديم":

أسلم على يديه ابن عم لـ"تجور" ملك تحجور إ"براهيم كَرٌّ جَوْبْ"، وكان ذا منزلة حظية عند الأمير، فأول ما أمره به شيخنا أن يرد جميع ما أخذ من أموال أتباع أحمد شيخُ وهو رجل أتى من فوت يزعم أنه يجاهد أمراء كجور لإدخالهم في الإسلام بعد أن صلوا وصاموا مع الشهادة والله أعلم بحقيقته. وهزم أهل كجور مرات، إلى أن أعانتهم فرنسا وقتلوه ونهبوا أمواله ومن معه. وكان الشيخ الوالد - يعني والد الشيخ أحمد بنبه – ينهى عن أخذ أموالهم لكونهم مسلمين وقتالهم فتنة (الدم هدر والمال رد لأهله) وأحله فيما بلغني بعض القضاة ومشوا على فتواه إلى أن أسلم إبراهيم هذا على يد شيخنا، وأمره برده وامتثل، فعظمت الوقيعة في شيخنا عند الأمير، وأنه نقض حكم القاضي الكبير، وأنه رجل خالف العلماء ولم يراع حرمتك وإن لم توقع به في الحال فسترى (ص73).

لم يبق من بيوت أكثر الأمراء بين كجور وبول -ممن علمت وما أقل من لم أعلم به منهم- أحد إلا وأسلم على يد شيخنا (ص80) وما بعدها.

الغيبة البحرية والمنفى الأول كان سنة جيبش 1313هـ في أواخر الخريف بسبب وشايات الأعداء إلى المستعمرين فاستدعوا الشيخ إلى اندر وكانوا قبل ذلك أطلقوا أيدي الأمراء الحاقدين على مريدي الشيخ فحرقوا أراضيهم وأخذوا زروعهم وأجلوهم إلى مكان الشيخ ثم أذنوا لهم بعد ذلك في العودة إلى أراضيهم.

(ص90) قال لي بفيه: إن كتابه في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم "مقدمة الخدمة" كان هو السبب في الغربة من إجابته له نعمة في طي نقمة.

قال لي ذات يوم: الحمد لله ما ازددت يوما إيمانا بما وجب الإيمان به ولم أزدد تحفظا من الورع ولا حبا في الخير وقياما بالعبادات منذ كلفت إلى الآن.

فقلت له: إذن ما ازددت به في الغيبة؟ فتبسم وقال لي: ازددت كثيرا منه المعرفة والوصول واليقين بمراتبه ومواهب لا تتناهى.هـ.

(ص90): وترك أمر عياله لأخيه وأمينه الشيخ إبراهيم، ومكث في منفاه 7 سنين (ص91).

(ص123): تعاقبت على الشيخ أنواع البلاء من قلة الصحة وكثرة التضرر بالماء فجاهد نفسه واتهم الشيطان؛ يتطهر بالماء ويتداوى من ضرره بحسب السنة في التداوي، حتى تغلب عليه وصار الماء شفاءه... مع أمراض مضنية لا تنفك عنه غالبا في أيام دهره، فيصبر عليها ويشتغل بخدمته معها، فلا يعرفها فيه من لم يعرفه.

(ص131): قال لي رضي الله عنه يوما: داري هذه ما وضع شيء منها ولا من أمتعتها إلا وهو قائم بالتسبيح والحمد زيادة على ما جبلت عليه الأشياء من قوله: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ).

(ص132): حكى علي مريده الكبير الشيخ إبراهيم فال أنه قال له: يا إبراهيم أنا لو لم أجد من آثاره صلى الله عليه وسلم إلا منظر هذه النجوم والسماء التي تحققت أنه صلى الله عليه وسلم كان ينظر إليها، لوثقت بأن نيتي فيه ومحبتي كفيلتان لي بقضاء الحاج والأخذ باليد.

(ص135): كان لا يغفل ولا يتساهل عن التسمية في كل حركة وتصرف بتعظيم وهيبة، وكان يصرف كل ما لم يسم عليه حتى يجعله في هيئة سمي عليها، فإذا فرشت له فراشا، وصببت ماء، وصنعت طعاما، بلا تسمية رفعه حتى يرده بالتسمية.

حضرت ذات يوم وقد أتاه مريد بطعام فقال له رضي الله عنه: إلى الآن تأتيني بمثل هذه الأطعمة التي هي عندي كالميتة، أما تعلم أن ما لم يسم الله عليه فهو كالميتة عندي.

(ص136): ومن ملازمته للسنة، ملازمته للتيامن. ففي البخاري كان صلى الله عليه وسلم يعجبه التيامن في تنعله وترجله وطهوره وشأنه كله. وكان رضي الله عنه، يتحرى التيامن في كل لفتة وحركة؛ أتيته ذات يوم وفي جيبي هدية فأدخلت يدي اليسرى في جيبي لأن الجيب كثيرا ما يكون في ذات الشمال، فانتهرني وسدد النظر إلي وقال أكذلك؟ ثم قال: ذات الشمال؟ فحولتها إلى يميني.

(ص172): وفي عام أيسش كان اتصاله برسول الله صلى الله عليه وسلم. أخبرني كاتبه حمزة جخت، أنه في شهر رمضان من هذا العام الذي نظم فيه قصيدته التي يقول فيها:

أَبْكِي عَلَيْهِمْ وَأَرْجُو فِي الْبُكَاءِ غَدًا رِضْوَانَ مَنْ فِيهِ غَابُوا بِالْحَلاوَاتِ

ومطلعها:

حُقَّ الْبُكَاءُ عَلَى سَادَاتٍ اَمْوَاتِ تَبْكِي الأَرَاضِي عَلَيْهِمْ كَالسَّمَاوَاتِ

كان أول ما عاين رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن من وراء ستر رقيق شفاف.

(ص186): انكب منذ صباه على لوحه لا يفارقه ولا يفتر عن الدرس. بلغني أنه لم يكن أسرع أهل بيته حفظا للدروس، ولكنه كان أقوى منهم ذاكرة وأشد منهم انقطاعا.

(ص198): من كلامه قال رضي الله عنه: طلب شيء من الحكومة قليلا أو كثيرا كالكفر عندي.

ذلك، والله أعلم، لمعاهدته مع الله أن لا يشكو إلى بشر. فنقض العهد كبيرة عند القوم.

(ص199): له:

مَدُّ يَدِي لِغَيْرِ ذِي الْجَلَالِ عِنْدِي مِنَ الضَّلَالِ وَالإِضْلَالِ

وله:

مَدُّ يَدِي بَعْدَ امْتِدَادِهَا لَكَا لِلْخَلْقِ سَاءَنِي لِكَوْنِهَا لَكَا

(ص252): كان رضي الله عنه قليل التيمم، مكث الخمسين سنة من عمره الأخيرة لم يتيمم بما فيها من الأمراض والأوجاع والغربة وأشغالها.

ولا كان يمسح علي الجبائر، بل يسقطها.

وكان قبل هذه الخمسين سنة قليل التيمم. لكنه يتيمم مرة لعدم الماء وخوف خروج الوقت وكان يتوضأ لكل صلاة ولو كان على وضوء.

(ص259): وطلب مرة نعنعا يجعله في الشاي فأتي بنعنع يابس فتبسم وقال: أنا لست من أهل القديد، قديد النعنع، وقديد الدين. ثم قال: أتعرفون ما قديد الدين؟ هو صلاة فريضتين بوضوء واحد. وخرج يوما فأراد أحد مريديه أن يفرش له فراشا فسبقه إلى الجلوس وقال: في المباشرة حلاوة، ويعني ظاهر لفظ الآية: (وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (48)).

(ص260): سأله بعضهم عن مثلث الغزالي، فقال له: مثلث الغزالي: الإيمان والإسلام والإحسان، فمن دام عليها يجد الأنوار والأسرار والبركات، فاشتغل بها عن غيرها.

(ص268) وله:

بَرَكَتِي بَرَكَةٌ لا تَنْصَرِمْ تَوْسِعَتِي كَمَدَدِي لا تَنْخَرِمْ

(ص271): كان رضي الله عنه يطوي الليالي والأيام لا يذوق من الطعام إلا ما يقيم الصلب، ولا من الماء إلا ما يبل الصدى، شبعان من المعرفة وريان من المحبة.

وكان رضي الله عنه لا يجمع بين إدامين مثل اللبن والسكر.

(ص275): وكان كثير الصوم ولا يفطر إلا بقبضات يسيرة من القديد والكسكس اليابس.

(ص278): كان صبورا على السهر وكان سهره أعجب أوصافه، فإنه لم يعرف له مهد للنوم أو غرفة للمبيت. أكثر ما حفظت عنه غفيات بعد صلاة العشاء، قبل أن ينام الناس. متكئا بعض الاتكاء في بعض تعاليمه وأنسه بذكر الآلاء والتوعظ والانبساط، وتتخلل ذلك تلك السكتات التي هي بين النوم واليقظة، ولا يدوم ذلك إلا ساعة أو ساعتين، ثم يقوم في تفقد الناس والضيوف ولوازم حقوقهم وإذا فرغ من ذلك يقوم لصلاته وتلاوته، والتلاوة أكثر

أعماله الليلية والكتابة في العشرين سنة ونيف الأخيرة من عمره التي عقلتها، وأخبرت أنه كان أكثر صلاة وذكرا للأذكار المأثورة قبل ذلك.

(ص279): كانت له رضي الله عنه قومة بين المغرب والعشاء وقد تكون ركعتين بالزهراوين: البقرة وآل عمران.

وكان سهره عجبا؛ كثيرا ما يرسل إلينا في جوف الليل، وإذا أتاه المنادى عليه مسحة النوم يقول: سبحان من لا تأخذه سِنَة ولا نوم. وقل أن تنتبه في ساعة من ساعات الليل وترمي الطرف إلى داره، إلا رأيت نور مصباح يتلألأ في خلال البيوت، وهو عنده أو في يده. وقل أن تعيره سمعا إلا وسمعت قراءته...

وحكوا عنه أنه كثيرا ما يخرج في جوف الليل لزيارة القبور.

(ص98 ج2): حكى عليٌّ المريد العالم السني النبيل عبد الودود بن سيد عبد ال الأبيري، أنه مكث زمنا طويلا معه وكان يؤدي الوقت في أول وجوبه.

قال: فكلمته يوما في وقت الظهر ليؤخره قليلا، فقال: إني أريد أن أفعل عند الأمر.

(ص101 ج2): أنقذ أمة من الناس من الرق بنهيه - تلميذه التائب على يده - بِرَمْ كُدُّ مَرَمْ جُوْبْ، عن تملك شيء من أموال أتباع أحمد شَيْخُ بَهْ كما تقدم.

(ص105 ج2): كانت قرة عينه رضي الله عنه في العبادة ومناجاة رب العزة، سمعته يقول: لا يضنيني مرض وينهك قوتي إلا وأكون كلما سمعت الأذان كأنما أنشط من عقال.

(ص145 ج2): كان ضعاف المسلمين يتجرأون على مخاطبته بكل استئناس ويطالبون حوائجهم كدين حل أجله، وكذلك صبيان المدارس والعجائز، وإذا سمع صارخا فهو أول من يهتم بإغاثة.

وهو على هذا شجاع متهور إذا سيم جانب الله ودينه خسفا.

يتجرأ على الملوك ويجاهر بعقيدته عندهم ويقاطعهم الكلام إذا حان وقت الصلاة، ولا يئن لوجع، ولا يأخذ بالرخص عند الأعذار، إنما يتشدد ويقول: "الحق عند ولاة الأمور"، ويصدق عند المحن ولا يعرف التورية.

ثم يحتزم ويقول: "لا تأخذوا أنفسكم بمثل ما آخذ به نفسي"؛ ويوصي على مراعاة الشرع الشريف في العمل بالرخص عند الأعذار، وكان يقول: "لو وجب علي الكذب لما أمكنني".

(ص226): سمعته رضي الله عنه في مرض شديد لا يكاد يرفع رأسه منه، يقول: "إن هذا بلاء كاد يقع بالناس فتحملته عنهم".

وقبل مرض الشيخ هذا بأيام قليلة سمعت المريد السائح الزاهد المخبت مختار بنت جخت يحدث أخاه أبا بكر جخت ابن القاضي مجخت، وهو معلمي، وكان من أصدق الناس وأورعهم، فقال مختار إنه رأى رؤيا أفزعته وهي أن الشيخ رضي الله عنه وقع به مرض شديد ذهب بجسمه، فكادت عقول المريدين تذهب، فقلت لهم: تعالوا نتحمل عن الشيخ بعض المرض، ثم تقدمت فأخذت شيئا فانقلبت، فقلت لهم: أما أنا فقد أخذت نصيبي. ثم لم يمض على هذه القصة إلا قليل حتى مرض الشيخ رضي الله عنه مرضه هذا، ثم بعد أسبوع مرض هذا المريد ومكث قليلا فتوفي رحمة الله عليه, ثم عوفي الشيخ رضي الله عنه، وأمر الشيخ رضي الله عنه أن يدفن المريد في مدافن الصالحين قريبا من سهوة الماء.

(ص251): كان شديد الصبر على العبادة لم يأخذ قط بالرخص ولا كان يمنع منها من أرادها، بل ربما يحيل عليها من استفتاه نظرا للمسلمين ما لم يؤد إلى تتبع الرخص المذموم عند الجميع.

وكان يقول: "لا ينبغي الاقتداء بي في التشديد، فإني في أمر لستم فيه. ليقف كل امرئ عند قدره".

(ص250): ومن جميل صبره ما حكى علي أحد غلمانه الذين كانوا معه في السفر إلى أراضي البياضين، أنه لم يزل يتذكر يوما قالوه عند حسي تسمي ببكي في معمعان الصيف، والرمل يتوقد من الحر، في مكان قفر قصير الأشجار، لا ماء ولا زرع، بعد سرى وتهجير، قال: نزلنا عند الحسي، تحت شجرة نحو القامة قصيرة الأغصان شائكتها قليلة الظل لا يحيط ظلها بأكثر من شخصين، بين عروشها أشعة الشمس الملتهبة. فقسمنا أسمالنا البالية، فلويناها عليها ليتقارب الظل، فنزل الشيخ رضي الله عنه تحتها وكان يجلس القرفصاء، والشوك يتناول عمامته إلا أن نكفه عنه، ويتصبب جبينه عرقا، وبحر الآل محيط بنا ترقص أجزاؤه بعضها في بعض، وقد يبست الشفاه من العطش من جميعنا، فتفرقنا نطلب الماء إلى أن عثرنا بعد لأي على بير معطلة، أدلينا أحدنا فيها بعد أن ربطنا رجليه في مزادتين فارغتين، مخافة النزول على مؤذ؛ حتى إذا هبط على بلة طين يعلوه ماء آسن فحل إحدى المزادتين فغرف بيده ما أمكنه منه فأتيناه به فلم يزد على التبسم. فتوضأ، وناولنا ما بقي أسود له رائحة من طول ما هجر. ولم يزدد الشيخ رضي الله عنه إلا جدا واجتهادا في تلاوته وإقامة عبادته، يتهلل وجهه وتستنير أسِرَّتُه وعلينا الرواح إلى محل بعيد ليس بدون منه في الغربة.

(ص211): قال لي ذات يوم: إن السبع السنين التي مكثها في كونگو ما ضاعت، وسيظهر ذلك يوم تبلى السرائر، ما خدعت ربي في عبوديتي ولم يخدعني تبارك وتعالى في ربوبيته من صدق وعده وحسن جزائه، ولكن الدنيا ليست بدار جزاء إنما الشأن في الآخرة.

ولقد صدق والله عن نفسه: لم يشبع قط من طعام ولا انبسط لمحادثة دنيوية، ولم يوطأ له فراش لنوم، إنما كان نومه غلبة في قلة وخفة أشبه شيء بغيبة... وما فرح قط بمتجدد من نعم الدنيا إلا ما صرف في الطاعة على كثرة تهافت الدنيا عنده.

(ص225): سمعته رضي الله عنه يقول إنه كان في بعض مناجاته يغلب عليه التوحيد لدوام المشاهدة بحيث يناجيه مولاه: فهل نسيت أن بيننا واسطة وهو إلينا الوسيلة. قال: فأرجع إلى معرفته وألتزم الأدب بين يديه صلى الله عليه وسلم فتنسيني فضائله ومناقبه فآتيه في جماله، وأنقطع إليه وأهيم به في خدمته وإحياء سنته إلى أن يقول لي: ألا تعرف أن لك ربا هو الصمد؟ قال: فأقوم بتجريد توحيده تعلى، فعلمت أن الشأن الدوران بينهما فجعلت السكون عند الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم، لأن العندية تقتضي السكون والاستقرار وهو منتهى السير قال تعالي: (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ).

وقال رضي الله عنه:

دَلَّنِيَ اللهُ عَلَى مُحَمَّدِ وَقَادَنِي مُحَمَّدٌ لِلصَّمَدِ

(ص227): كان رضي الله عنه يقول: من أراد أن يعرفني بتركيب الأقيسة لما مضى من الحكايات والاستقراء ممن حفظ التاريخ فهو أجهل الناس بي، إنما أنا عبد تولاني ربي عنده، فكما لا شريك له في، فلا سبيل لأحد إلى معرفة أمري غيره تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وله:

يَجِدُنِي عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرْ كُلُّ مَلِيكٍ لِلْجِنَانِ يَبْتَدِرْ

(ص244): كان صبورا على العبادات، ورَمَت يده يوما ورما عظيما يجري منها الدم والقيح وانشق الجلد عنها وانكسح، فبقيت لحما أحمر؛ فلم يزل يتوضأ ويغسلها والدم الكثير يجري منها فقال: أيتها اليد سواء دميت أو بريت، فأنا عبد مأمور وإني لماض في ما أمرت به.

(ص152 ج2): ما اتخذ بيتا لنوم ولا فراشا لنوم كان جلوسه على التراب واستراحته القليلة على فرش الخشب القاسية، وكان لباسه رضي الله عنه خشنا وذواق مطعمه أخشن منه.

(ص165): وبرهان كماله وصلاحه حب البياضين الذين هم أكمل صورة في زمنه لمن يحب الله لاجتماع الكفاءة الدينية فيهم من العلم، ومراعاة الإسلام كافتهم أو كثير منهم.

وبجانب آخر كثرة ضعفائهم ومساكينهم، لما أصابهم في أوان دخول النصارى بلادهم من شدة الفوضى، وإغارات اللصوص، وتناحر بيوت الإمارات. ثم قيض الله تعالى لهم – وخصوصا أكثر قبائل تشمشة، وإدوعل، وبني الحسن، وأولاد أبييري وغير وغير – أن دخل الشيخ رضي الله عنه أرضهم، والأموال تتدفق عليه وهو الغرثان الصادي إلى إفراغه في أيدي محاويج المسلمين...

(ص186 ج2): قال أيام أنزل أمير اندر جنوده الكثيرة لطب أمير كجور وتعاكس بيوت الإمارات فيما بينها لتوجر وصنب لوب وصنب باي، والبلاد كلها في اختلاط، فقال الشيخ رضي الله عنه: إن جميع المتنازعين تنازعوا على شيء، وأهون شيء على رب الأرباب أن يجمعهم بقدرته وحكمته في شق قشرة لوزة، ولا يوسع القشرة ولا يقلل من كثرتهم وحركتهم؛ فبهت القوم.

(ص186 ج2): عام جيسش، أخذوه إلى اندر، فحاذاه شرطي ناصح له، وقال له: إن الحكومة عازمة على الفتك بك فاستعمل ما عندك من السر، فقال الشيخ رضي الله عنه: مستحيل على الله غير الحضور. انتهي كلام الشيخ رضي الله عنه.

ولنورد باختصار شيئا مما كتبه - في شأن الشيخ - سيد أحمد بن اسمه في كتابه "المقولات في الحادثات":

(ص5): أول: ما أذكر أنه أفرغ الله سبحانه عليه الجمال... فوجهه رضي الله عنه جميل، وصوته لذيذ، وأخلاقه حسنة جميلة.

والثاني: رجوليته رضي الله عنه، لأنه كان متخلقا بأخلاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، رضي الله عنهم وعنه، الأشداء على الكفار الرحماء بينهم.

سمعته رضي الله عنه قال: النصارى لم يظفروا مني بقليل ولا كثير - أي من الخوف منهم - فإنه لبث معهم ثماني حجج يفعلون به أنواعا من الأفعال العجيبة، ولكنهم ما ظفروا منه قط بجزع ولا فرح، ولما أخرج لنا الورد المبارك قال لنا: خذوه بقوة.

وكان إذا كبر للصلاة كبر عن قوة، وإذا حَمِده وإذا ركع بلا ضعف ولا كسل، وإذا مشى لا يقدر أحد أن يماشيه من سرعة مشيه من غير إخلال بالسكينة والوقار، وإذا ركب الخيل أسرع مع حسن الركوب حتى أن البيضان ليتعجبون من حسن ركوبه على الخيل زمن سكناه في أرضهم.

الثالث: كثرة تأليفه لقلوب المسلمين بإعطائه المال لهم، فلنساخ المصاحف عنده بيت مال لا ينفذ، فجعل الناس انتساخ المصاحف حرفة وتجارة إليه. وللشرفاء عنده بيت مال لا ينفد من غير بحث عن صحة شرفهم، فهم عنده جميعا مبجلون مكرمون غير أنه إذا أتاه الشريف الحقيقي الشرف ظهر فيه من تعظيمه وتبجيله وتفضيله ما لا يخفى على أحد. ولأهل الصلاح والدين عنده بيت مال كذلك، ولأهل العلم عنده بيت مال كذالك، وللفقراء والمساكين عنده بيت مال كذلك، وللسؤال والعفاة عنده بيت مال كذلك، ولأهل البيوت العظام عنده بيت مال كذلك عملا بقوله صلى الله عليه وسلم: (أُمِرْتُ أَنْ أُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ) حتى صار أولاد الكبار يُهْرَعُون إليه مستشفعين بشرف آبائهم وأجدادهم. وللشعراء عنده بيت مال كذلك فتراهم مجتمعين عنده يتقربون إليه تارة بمدح النبي صلى الله عليه وسلم وتارة بمدحه هو، فتخرج الطوائف كلها من عنده فرحين مبجلين، أوجههم تتلألأ من نوره رضي الله عنه وقلوبهم صقيلة من الأمراض.

وحدثني بعض من أثق به أن سبب تأليف الشيخ للمسلمين بإعطاء المال لهم أن النصارى يستميلونهم بإعطاء المال، فصار هو رضي الله عنه يعطيهم أضعاف ما يعطيهم النصارى لئلا يميلوا إليهم.

الرابع: شدة تعظيمه لحرمات الله تعالى وشعائره حتى أنه حدثني من أثق بقوله إنه كان مسائرا له رضي الله عنه إذ أقبل إليه الشيخ بوجهه الشريف وقال له: سر واخفض صوتك فإن هذا البيت الذي حولنا فيه المصحف أو المصاحف، والشك مني.

الخامس: شدة امتزاج روحه مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى أنه كان مريد له يقرأ قصيدته المسماة "مواهب" بحضرته الشريفة فلما بلغ القارئ قوله:

وَانْفَجَرَ الْمَاءُ النَّمِيرْ مِنْ يَدِ ذِي التَّكَرُّمِ

انفجر الماء من يد الشيخ فلما تصايح المريدون بذلك أمرهم أن يكفوا عن ذلك وجعل يخفي الماء، حدثني الثقة أنه حضر هذه القصة عند انجاريم.

السادس: شدة تأثيره في قلوب المريدين وغيرهم:

وسمعته رضي الله عنه ليلة عند دار القدوس في أرض جلف وهو يقول: إن الكمال الحقيقي لله تبارك وتعالى، وإن الكمال الإضافي لرسوله صلى الله عليه وسلم.

ولم أزل أتفكر في ذلك، حتى سمعت أن دار القدوس هي التي نال فيها الكمال رضي الله عنه، وكان رضي الله عنه يتوب إلى الله بعد الكمال مما قبل الكمال في قوله:

لَهُ مَتَابِي قَبْلُ مِنْ تَوَطُّنِي قَبْلَ كَمَالِيَ بِلا تَفَطُّنِ
كَمَا جِهَادِي وَبُيُوعِي الْمَاضِيَهْ جَعَلَهَا خَيْرَ مَسَاعٍ رَاضِيَهْ

وبلغني أنه رضي الله عنه قال إنه كان يظن أن نور النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يكون كله في شخص واحد من أمته، وأنه إنما يكون متفرقا بينهم حتى شاهد أنه كله يكون في شخص واحد من أمته فراعه ذلك لعظمه، ولا يخفى عليه أن الذي شاهد فيه ذلك نفسه...

وكان رضي الله عنه ربما صرح بكلام أهل الفناء كما في قوله:

فَكُلُّ مَن رَّأى سِوَى اللهِ الأَحَدْ فِي أيِّ شَيْءٍ فَهْوَ مُرْتَدٌّ جَحَدْ

ويصرح بأن العارف يسمع بسمع الله تعالى، ويبصر ببصره؛ وذلك هو الفناء في الذات موصوفة بصفاتها, هكذا فليكن الذوق وليكن الوصول (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61)).

وكان رضي الله عنه يقول: إن الشيطان لا يأتي لحضرته الشريفة وإن الزوار إذا قربوا من حضرته بقي عنهم الشيطان منتظرا لهم فإذا خرجوا من الحضرة المباركة, فمن حفظ منهم ما نال من الحضرة فإن الشيطان لا يرجع إليه ومن لم يحفظ ما نال منها رجع إليه والعياذ بالله تعالى؛ وكان يقول لنا: إن أتباعه لا يحقرونه يوم القيامة، يوم يدعى كل أناس بإمامهم.

وكان رضي الله عنه يقول لنا: إن من صدق تعلقه بنا فلا يكون سنده طويلا يعني أنه ليس بيننا مع النبي صلى الله عليه وسلم واسطة إلا هو رضي الله عنه.

وكان رضي الله عنه لا يطلب من الله إلا ما اختاره الله تعالى له، وأخبرني بعض أهل العلم أن ذلك هو علامة الولي الكامل.

وكان رضي الله عنه مباعدا للنساء الأجنبيات جدا.

وسمعت منه رضي الله عنه أنه كانت له مريدة تخدمه فانية في خدمته، ولم تقع عينه عليها إلا يوما واحدا وهو يوم وفاتها رحمها الله كأنه حضر جنازتها.

وأخبرني مريد له يقال له محمد الأفظل بن ابوه اليعقوبي، أنه لما أراد السفر من عند أهله في الساحل يريد الشيخ أوصته امرأة ولية من أهل بلده أن يقرأ لها السلام على الشيخ رضي الله عنه وأن الآية بينها وبينه الليلة التي كانت جالسة معه بين الأخصاص... فلما بلغ محمد الأفظل سلام الولية على الشيخ وذكر له الآية قال له الشيخ رضي الله عنه: لقيتها بعدك. قلت - القائل الشيخ سيد أحمد رحمه الله -: ولعل المرأة المذكورة آمنة بنت يوسف الشهيرة بالصلاح رضي الله عنها.

وكان رضي الله عنه دائم البشر والتبشش في وجوه المسلمين يمازحهم ويباسطهم كما يباسط الناس الأطفال. أتاه يوما بيضاني لا يحسن العربية فقال الشيخ: متى جئت؟ فقال: أتيت غدا. كأنه يريد الغداة. فقال له الشيخ: من يأتي معك؟ أي من يأتي معك غدا.

وأتاه آخر لا يحسن العربية فقال له: أتيت من عند الحية، فقال الشيخ: الحليم.

وقال يوما إنه قيل له شيء يعني من جهة الكشف فقال له بعض الحاضرين: من قال لك ذلك؟ فقال: قائل. أي قاله لي قائل.

وكان ربما يذكر مباسطة ربه تعالى له.

وكان رضي الله عنه يحب بني ديمان ويثني عليهم، ويدعو لهم بالخير، وربما قال لمن حضر منهم من المريدين والزوار: أنتم إنما أتيتم لترونا معنى قول محمد اليدالي:

دَيْمَانُ فِي النَّاسِ تِبْرٌ ...

وبلغني أنه سُئِل هل للتديمن أصل في السنة؟ فقال: إن أصله قوله تعالى: (عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ). كأنه يشير إلى أن شيمة بني ديمان الإعراض عن الأشياء.

ومن شأنه رضي الله عنه مداومة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى كاد أن يكون ذلك هو كلامه مع الناس.

ومن شأنه رضي الله عنه ملازمة القرآن العظيم وكان يتخذ مريدين حافظين للقرآن العظيم يختمون المصحف الشريف كل يوم مرات متعددة.

وقد عمل بهذه العادة الحسنة بعده ابنه وخليفته الشيخ محمد المصطفى رضي الله عنه، ثم عمل بها بعد ذلك الشيخ الحاضر وهو الشيخ الفاضل.

وكان رضي الله عنه سريع الجواب مع الإصابة فيه سألته مرة عن التوبة فقال: التائب كالواطئ على الجمر ينزع رجله سريعا ولا ينوي أن يعيدها.

وكان رضي الله عنه ذا خبرة باللغة العربية، قال:

نَزَعَ لِي نُورَ اللِّسَانِ وَالْكِتَابْ أُثْنَاءَ خِدْمَتِي لَدَى أَهْلِ الْكِتَابْ

وكان يخرج القصائد التي يحار علماء أولاد أعمر أگداش – الذين هم أعلم الناس بالعربية – في معاني ألفاظها.

وبلغني أنه قال إنه تعلم العربية بالدعاء، يسأل الله تبارك وتعالى شيئا فيعطيه ما هو قريب منه وليس هو بعينه، فيعلم أن اللفظ الذي دعا به ليس صريحا في مراده، ثم يدعو بلفظ آخر فيجد مراده بعينه وهذا نوع من التعليم عجيب.

وكان رضي الله عنه يكره الميل إلى النصارى شديد الكراهة له، وفي ذلك قال:

وَيْلٌ لِمَنْ إِلَى النَّصَارَى مَالاَ لِكَيْ يَنَالَ مِكْنَةً أَوْ مَالا

وكان رضي الله عنه يشدد على من تعلق به ثم ترك التعلق به، والعياذ بالله تعالى، وفي ذلك قال:

وَيْلٌ لِمَنْ عَنِّي تَوَلَّى مُدْبِرَا بَعْدَ الإِرَادَةِ وَعَنِّي صَبَرَا

وكان رضي الله عنه يعد تلامذته وعدا حسنا، ويدعو لهم بالخير، كما في قوله:

إِغْفِرْ لِكُلِّ مَنْ إِلَيَّ مَالا وَعَنْ يَدَيْهِ لا تُزَحْزِحْ مَالا

وقوله:

لِكُلِّ مَنْ بِيَ تَعَلَّقَ نَجَاهْ مِنْ كَدَرِ الدُّنْيَا وَفِي يَوْمِ النَّجَاهْ

وقوله:

كُلُّ مُرِيدٍ بِي يَلُوذُ يَسْعَدُ وَإِنَّهُ عَنِ الأَذَى مُبَعَّدُ

وقوله:

أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ بِالْمُخْتَارِ لِمَنْ يَلُوذُ بِيَ دَا اسْتِتَارِ

وكفاك من ذلك ما كتب فوق ورده المبارك من أن من داوم عليه لا يشقى أبدا بل يكون على خير وعافية مؤمنا مسلما محسنا. هـ كلام الشيخ سيد أحمد ين اسمه.

قلت: والقصيدة التي ذكر منها البيت: "وانفجر الماء ..إلخ"، المشهور عند الناس أن اسمها "جذب القلوب"، فلعل لها اسمين.

واعلم أن قول الشيخ: "إن نور النبي صلى الله عليه وسلم يكون في شخص واحد من أمته"، ليس معناه أن ذلك الشخص احتوى على جميع النور المشرف بل إنه شرب منه وورث منه ما لم يرثه أحد غيره من أولياء عصره كما أوضح ذلك سيدي عبد العزيز الدباغ في "الإبريز". فانظره فقد أوضح رضي الله عنه أن النور المشرف لو وضع على جميع المكونات لذابت، وأن وراثة الغوث للنبي صلى الله عليه وسلم معناها أنه لا ذات شربت من نور النبي صلى الله عليه وسلم أكثر منه...

وكان الشيخ رضي الله عنه مع شدة مكابدته للعبادة وانقطاعه إليها بالكلية، خفيف الروح حاضر البديهة ذا نكتة طريفة. وقد وردت من ذلك أشياء متفرقة في هذا المجموع فلا أعيدها.

وأتاه يوما بيضاني فقال له: يسلمون عليك بنو فلان، فقال الشيخ: سبحان الله أبلغة "أكلوني البراغيث"؟

وتحدث يوما أحد مريديه من البيضان، واسمه عبد الله، فقال له الشيخ: كن عبدا لله، فقال المريد: كنته، فأجاب الشيخ:

فِي كُنْتُهُ الْخُلْفُ انْتَمَى ...

وهذه كلمة من ألفية ابن مالك، وفيها أيضا كشف لأن ذلك المريد بعد ذلك صار ينتقد الصالحين واختلط أمره. وقال له هذا المريد مرة: المسجد فيه البراغيث، فقال الشيخ: المسجد فيه ما فيه.

وأتاه مرة ثلاثة من الزوار يطلبون المال فأعطاهم سبع أواق من الفضة فذهبوا عنه ثم تمالئوا وعادوا إليه وقالوا له: يا شيخ نحن لم نستطع قسمة هذه الأواقي على ثلاثة، فقال: إن شئتم قسمتها بينكم قسمة الأقدار، فقالوا: نعم. فأعطى واحدا خمس أواق، وأعطى واحدا أوقيتين، ولم يعط الثالث شيئا، وقال لهم: هكذا قسمة القدر يمنح واحدا كثيرا ويمنح آخر دون ذلك ويحرم آخر، فضحك الحاضرون، وضحك الشيخ، وثم أكمل لكل واحد منهم خمس أواق.

وكان مرة مع جماعة وفيهم ابنه وخليفته الشيخ محمد المصطفى، وكان وقت الغداء قد حان، وهم في منزل الشيخ محمد المصطفى، فأراد الشيخ أن يذهب فقال له الشيخ محمد المصطفى: رابعة الطوال حاضرة، فقال الشيخ: (وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى)، وذهب ولم يفهم الحاضرون المعنى، فسألوا الشيخ محمد المصطفى عن ذلك، فقال لهم: قلت له إن المائدة حاضرة، فأجابني بأنه صائم، ولكنه لم يرد التصريح بذلك خوفا من الرياء.

وفي "إرواء النديم" أن الشيخ كان يكثر الارتحال برحيل آل الشيخ سيديا طلبا للمرعى، وذلك في تغريب النصارى له إلى بلاد البيضان، وكان معه كثير من المريدين، فشق عليه الارتحال، فطلب من آل الشيخ المسامحة في التخلف عنهم واعتذر بالبيت القديم:

وَلَوْ نُعْطَى الْخِيَارَ لَمَا افْتَرَقْنَا وَلَكِنْ لا خِيَارَ مَعَ الزَّمَانِ

ولكن الشيخ قال:

وَلَوْ نُعْطَى الْخِيَارَ لَمَا افْتَرَقْنَا وَلَكِنْ لا خِيَارَ مَعَ الْحَشِيشِ

الباب الثاني في

شهادات مشايخ عصره وعلمائه له بالفضل والولاية

وقبل إيراد شهاداتهم أود أن أذكر كلمة قالها أحد بلغاء العلويين في شأن الشيخ وهي: "أن الشيخ أحمد بنبه أحرق ولايته بالشهود"، وهذه عبارة دارجة تقال لمن ادعى ضالة من الإبل مثلا وأتى على ملكه لها بشهود كثيرين جدا حتى لم يبق مجال للشك في أمرها، فيقال: "أحرق ضالته بالشهود"، ويعني أن الأدلة على ولاية الشيخ بلغت مبلغا من الكثرة والوضوح يستحيل معه الشك فيها.

وذلك أن جميع الدلائل تضافرت على إثبات فضل هذا الشيخ وولايته من علم وعبادة خارقة لأنماط العادات، وزهد في المال والملذات وبذل للمال في أوجه البر وفي إسعاف السائلين، وبغض للكفار ومجانبة تامة لهم، مع الدوام التام والمواظبة على هذا السلوك الحميد البالغ الصعوبة، في اليسر والعسر، هذا إلى خوارق وكشوفات واضحة تفوق الحصر، مع انتقام الله تعالى له من كل من تعرض له بسوء انتقاما سريعا مما سنتعرض لبعض منه إن شاء الله تعالى.

وقد مدح الشيخ شعراء كثيرون جدا من بلاد موريتانيا ولكني لن أتعرض لأشعارهم ولا لأسمائهم لأن ذلك لا تسعه المجلدات، ولأن الشعراء قد يمدحون طمعا في المال. وإنما الذي أهتم به الآن هو شهادة أقران الشيخ من علماء الشريعة ومن مشايخ الطرق الصوفية لما هو معلوم من أن المعاصرة تمنع المناصرة، ولما يكون أحيانا بين أهل الطرق المختلفة من التنافس.

وقد عرف كثير من العلماء بالإنكار على الصوفية أو على الأقل بشدة التحري والتثبت في الاعتراف بأشياخ الصوفية، فإذا أجمع هؤلاء وهؤلاء على الاعتراف بشيخ من أشياخ الصوفية وأشادوا بفضله وولايته، فذلك دليل على أن ولايته ظهرت لهم ظهور الشمس في رابعة النهار وبلا غيم ولا غبار.

وأول ما أورد من هذه الشهادات هذا البيت الفريد البليغ في دلالته للعلامة الصالح محمد فال بن محمذ بن أحمد بن العاقل الديماني المعروف بـ "بَبَّهَا" مذيلا به أبياتا قيلت قبله، ذكر فيها بعض الأولياء وهي:

طِيْفُورُ مَعْرُوفُ أُوَيْسُ الْجَيَلِي ... أَبُو يَعَزَّى وَالْغَزَالِي اسْتَعْمِلِ
ذِكْرَهُمُ مَسًّا صَبَاحًا تَسْلَمِ ... مِنَ الْمَكَارِهِ وَمِنْ جَهَنَّمِ

وذيل البيتين نظام آخر فقال:

وَالسَّابِعُ الْقُطْبُ الشَّرِيفُ الشَّاذِلِي ... غَوْثُ الْوَرَى فِي عَاجِلٍ وَآجِلِ

فذيل ببها الأبيات بقوله:

وَالثَّامِنُ الْخَدِيمُ بَنْبَ أَحْمَدُ ... مَن مِّثْلُهُ فِي الْغَرْبِ لَيْسَ يُوجَدُ

وحقا فإنا لم نسمع للشيخ أحمد بنبه بشبيه لا في الشرق ولا في الغرب.

وممن شهد له بالولاية من أئمة معاصريه العالم الصالح محمد الأمين ولد أحمد ولد بَدِّ العلوي التجاني في كتابه "إفادة الغيب والجلاس في مناقب شيخنا ووالدنا أبي العباس".

وقال: "وقد بدا لي أن أختم فصل مشايخ عصره بشيخ الشيوخ يتيمة دهره، مخرج العويص من وكره، راهب الدهر وحبره، من وهب لربه جميع عمره، فوهب الله له جميع خلقه، من استوى في سيبه جميع الخلق عبده وحره، وسوده وحمره.

إِنْ كُنْتُ قَدْ أَخَّرْتُهُ ذِكْرًا فَكَمْ مِنْ آخِرٍ فِي رُتْبَةِ التَّقْدِيمِ

خديم نبينا المصطفى المكرم صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم فريد الدهر من غير اشتباه أحمد بن محمد بن حبيب الله".هـ.

ثم ذكر أن الشيخ أحمد بنبه بلغ للشيخ أحمد بن بَدِّ السلام من رسول الله صلى الله عليه وسلم مع بشارات أخرى جميلة.

ومنهم الولي الكامل ابن الأولياء والشرفاء الأفاضل الشيخ سعد أبيه بن الشيخ محمد فاضل القادري طريقة، وكان الشيخ سعد أبيه يحتل منزلة في بلاد البيضان وفي السنغال من الرفعة والتمكين لا يستطيع أمير أن يصل إليها، وقد كتب إليه رسالة يهنئه فيها برجوعه بعد إجلاء النصارى له في البحر يقول فيها:

"وبعد أزكى التسليم، أحمد ربا نظم شمل الدين، بأيام إقبالكم، بعد تشتيته بليالي إدباركم، ونشر بنشر قدومكم الأفراح، وكشف بانكشاف الغيبة عن وجهكم الأتراح، واستخرج ياقوتكم من غور البحار العظام، وحلى بها جيد المعاهد والإسلام، وأصلي على نبي فتق رتق الأكوان، وتسلسل نوره في الأمة إلى آخر الزمان

وبعد فمن صاحبكم الصافي الوداد، وإن تباعدت منا الأجساد، مع أنه عن الوصل غير قانع، المصرح باسمه في الطابع، إلى السيد الهمام، الملقي إلى الله الزمام، من نال بالاصطبار، مقام الأبرار، ثم ارتقى إلى التسليم والرضوان، فدخل في زمرة المقربين أهل العرفان، أسأل الله له الحسنى والزيادة، وأن يؤمننا وإياه من غوائل الغرور المعتادة، أعني ذا الفتوحات والمواهب، من طار صيته في المشارق والمغارب، الشيخ أحمد بنبه الولي الكامل، الصادق فيه قول القائل:

حَلَفَ الزَّمَانُ لَيَأتِيَنَّ بِمِثْلِهِ حَنَثَتْ يَمِينُكَ يَا زَمَانُ فَكَفِّرِ

موجبه إعلامكم أنا ولله الحمد مستبشرون ومهنئون لهذا الرجوع، بعد التسلية والتعزية على سفر منعنا الهجوع، ولما سمعنا من طلعتكم إقبالا، أنشأنا في شأنكم الرفيع ارتجالا:

مَعَادِنُهُ أَجْلَتْهُ مِنْهَا النَّصَارَى فَأَصْبَحَ فِي تِلْكَ الْبُحُورِ نُضَارَا
وَمِنْ صَدَفِ الْبَحْرِ الْمُحِيطِ بَدَا فَمِنْ تَلأْلُئِهِ فِيهِ الْعُيُونُ حَيَارَى
فَعُجْبِي لِكَيْمِيَّا امْتِحَانٍ غَدَا بِهَا نُضَارُ الْوَرَى يَاقُوتَةٌ لا تُبَارَى
وَبَدْرٍ مُنِيرٍ غَابَ فِي الْغَرْبِ ثُمَّ لاَ حَ مِ الْغَرْبِ شَمْسًا رِفْعَةً وَانْتِصَارَا
وَيَا عَجَبًا بَابُ الْمَتَابِ مُفَتَّحٌ لِكُلِّ مُرِيدٍ رَامَ مِنْهُ جِوَارَا
هَنِيئًا لِذَا الدِّينِ الْغَرِيبِ الَّذِي غَدَا يَتِيهُ سُرُورًا مِنْكُمُ وَانْتِصَارَا

ولتعلموا أني منذ ساقتكم الأقدار، إلى جزيرة تلك البحار، لم أزل لله أتضرع وأجتهد أن يرجعكم ذخرا للعباد والبلاد ولا تنسوني من صالح دعواتكم في حضراتكم وخلواتكم بل لا

تنسوا جميع المسلمين فإنهم الآن في أمور تشيب لها النواصي، قد استوى فيها الداني منهم والقاصي، والله يمتع المسلمين بحياتكم دهرا طويلا فإنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير لا رب غيره ولا خير إلا خيره وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم".

جواب الشيخ أحمد بنبه:

"بسم الله السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد: فقد ورد علينا كتابكم الكريم، الذي ضمنه التهنئة والتكريم، فجزاكم الله تبارك وتعالى خير ما جازى به أولياءه الأصفياء في الدنيا والآخرة بجاه من ساد جميع المرسلين والأنبياء سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه، ومَنْ وَالاهُمْ من المسلمين بإحياء سنته وسيرته ومحبته.

رَدَدْنَا إِلَى مَنْ صِيتُهُ قَبْلُ دَارَا ... وَفِي الْحِينِ تَسْلِيمًا يُنَوِّرُ دَارَا
سَلَامٌ عَلَى شَيْخِ الشُّيُوخِ الَّذِي لَهُ ... مَقَامٌ رَفِيعٌ وَهْوَ لَيْسَ يُبَارَى
سَلَامٌ عَلَى سَعْدٍ سَعِيدٍ مُبَجَّلٍ ... يُكَرِّمُهُ الْقَاصِي وَمَنْ كَانَ جَارَا
أَيَا شَيْخُ خُذْ مِنِّي جَوَابًا يَدُلُّكُمْ ... عَلَى سَبْقِكُمْ فَالْفَرْدُ لَيْسَ يُجَارَى
عَلَى الْمُصْطَفَى خَيْرِ الْبَرَايَا صَلَاةُ مَنْ ... إِذَا كَانَ لِلأَوَّابِ كَفَّ تَبَارَا
عَلَيْهِ سَلَامُ اللهِ مَا دَامَ مُرْسَلاً ... وَمَا انْكَبَّ مَنْ يُخْفِي الْهُدَى حَيْثُ بَارَا

وقد ذكر نجل الشيخ أحمد بنبه الفتى الصالح العابد الصامت الشيخ محمد الأمين في كتابه "دليل الحائر في غيبة الشيخ في الجزائر" أن النصارى امتحنوا الشيخ سعد أبيه، والشيخ باب بن حمدي فرفضا أن يساعداهم على تغريب الشيخ.

قال: فلما وصل الشيخ - حرسه الله - قرية اندر أسكنه الأمير دارا مكث فيها بقية صفر وربيع الأول إلا يومين، فدعاه الأمير وتلقاه بأخبث كلام وأشد ملام ثم أمر بدخوله في سفينة البحر بعد امتحان الشيخين الشيخ سعد بوه، والشيخ باب بن حمدي، فأكرمهما الله تعالى بالامتناع مما تريده النصارى، فأما الشيخ سعد بوه فخوفهم بتحريك الأرض وزلزلتها، وأما الشيخ باب فخوفهم بعدم جريان السفينة؛ فلما أمروا الشيخ حرسه الله بالدخول في السفينة استسلم للجليل ورأى أن كل ما فعله الجليل فهو الجميل.هـ.

وكان الشيخ باب بن حمدي وليا من أولياء الله تعالى العلماء، وقد شهد للشيخ أحمد بنبه بأنه لا مثيل له في الأولياء، وذلك أنه لما قربت وفاته أمر تلميذه محمد بن أدشاغ اعمر أن يلتحق بالشيخ أحمد بنبه فإنه لا مثيل له.

ومن عرف شدة بطش الاستعمار الفرنسي في ذلك الوقت وكثرة جواسيسه وشدة بغضه للشيخ أحمد بنبه أدرك مدى خطورة المجازفة بمدح الشيخ وتهنئته بعودته من المنفى مثل ما فعل الشيخ سعد بوه والشيخ سيديا بابا جزاهم الله عن الإسلام وعن كلمة الحق أحسن جزاء.

ومنهم العلامة المعروف بمحاربته للبدع وكراهيته لمدعي الصلاح ممن ليسوا له بأهل الشيخ سيديا بابا بن الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديا الأبياري.

ومن عرف علو مقام الشيخ سيديا وآبائه في بلادهم حتى صاروا بمنزلة الأمراء، وعرف غناهم وإنفاقهم وكثرة أتباعهم وسعة علومهم وإقبال شعراء الآفاق عليهم بالمدائح بالفصحى وبالدارجة الحسانية، وأنهم مع ذلك من حملة راية الطريقة القادرية في البلاد، وعرف امتياز

الشيخ سيديا باب بإنكار البدع ومحاربة أدعياء الولاية الذين لا يتحلون بالعلم والاتباع، من لا حظ ذلك كله أدرك قيمة شهادة الشيخ سيديا للشيخ أحمد بنبه، والشيخ سيديا هو القائل:

الشَّيْخُ فِي عُرْفِ الزَّمَانِ الْحَاضِرِ لَيْسَ كَمَا تَسْمَعُ فِي ابْنِ عَاشِرِ
(يَصْحَبُ شَيْخًا عَارِفَ الْمَسَالِكْ يَقِيهِ فِي طَرِيقِهِ الْمَهَالِكْ)

وهو القائل أيضا في التنديد بالنمط الزائف في نظره من أدعياء التصوف:

كُن لِّلإِلهِ نَاصِرَا وَأَنْكِرِ الْمَنَاكِرَا
وَكُن لِّقَوْمٍ أَحْدَثُوا فِي دِينِهِ مُهَاجِرَا
قَدْ مَوَّهُوا بِشُبَّهٍ وَاعْتَذَرُوا مَعَاذِرَا
وَزَعَمُوا مَزَاعِمًا وَسَوَّدُوا دَفَاتِرَا
إلخ ...

وقد شهد هذا الشيخ للشيخ أحمد بنبه شهادات ثمينة جدا مثل قوله في قصيدة له:

أَلشَّيْخُ أَحْمَدُ نِعْمَةٌ أَوْلاهَا هَذِي الْخَلاَئِقَ كُلَّهَا مَوْلاهَا

إلي أن يقول:

شَهِدَ الْخَلاَئِقُ أَجْمَعُونَ بِكَوْنِهِ بَرًّا كَرِيماً قَانِتاً أَوَّاهَا
مِمَّنْ يَرَى نَفْعَ الأَنَامِ فَرِيضَةً فِي دَهْرِهِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ
يَرْضَى إِذَا جَرَتِ الأُمُورُ مُسَلِّمًا عِلْماً بِأَنَّ إِلهَهُ أَجْرَاهَا
لا تَحْجُبُ الأَسْبَابُ عَنْهُ حَقِيقَةً إِنْ تَاهَ فِي ظُلُمَاتِهَا مَنْ تَاهَا

وقال فيه من قصيدة أخرى:

مَسْجِدُ الشَّيْخِ جَامِعُ الْبَرَكَاتِ وَمَحَلُّ الْخَيْرَاتِ وَالرَّحَمَاتِ

إلي أن يقول:

إِنَّمَا الشَّيْخُ نِعْمَةٌ أَنْعَمَ اللَّـ ـهُ بِهَا آيَةً مِنَ الأَيَاتِ

وله فيه قصيدة أخرى:

لآلِ حَبِيبِ اللهِ مَجْدٌ وَسُؤْدَدُ وَفَضْلٌ طَرِيفٌ كُلَّ حِينٍ وَمُتْلَدُ
غَذَاهُ بِفِعْلِ الْخَيْرِ جَدٌّ وَوَالِدٌ فَيُعْرَفُ فِيهِ الْخَيْرُ مِنْ حِينِ يُولَدُ
تَجَرَّدَ لِلهِ الْعَظِيمِ مُشَمِّرًا وَكَانَ لَهُ عَنْ كُلِّ غَيْرٍ تَجَرُّدُ

وله فيه من قصيدة أخرى:

وَمَا عَيْبُهُ إِلاَّ عِبَادَةُ رَبِّهِ وَنَفْعُ الْوَرَى فِي صُبْحِهِ وَمَسَائِهِ

وله فيه من قصيدة أخرى يسليه عن تغريب النصارى له خارج بلده:

فِي الْحَاضِرِينَ وَفِي الْبَادِي لَكُمْ بَادِ فَضْلٌ عَلَى حَاضِرِ الأَقْوَامِ وَالْبَادِي
مَنْ كَانَ بِالْمَالِ وَالأَوْلادِ مُشْتَغِلاً فَمَا اشْتَغَلْتَ بِأَمْوَالٍ وَأَوْلادِ

هَادٍ إِلَى الْخَيْرِ مَهْدِيٌّ وَلَسْتَ إِلَى ... سُبُلِ الْقَبِيحِ بِمَهْدِيٍّ وَلا هَادِ
تَنْقَادُ لِلسُّنَّةِ الْبَيْضَاءِ مُتَّبِعاً ... وَلَسْتَ لِلسُّنَّةِ السَّوْأى بِمُنْقَادِ
مَنْ يَخْرِقِ الْعَادَ لا يَلْوِي عَلَى أَحَدٍ ... مِنْ نَفْسِهِ يَتَعَوَّدْ خَارِقَ الْعَادِ
مَنْ كَانَ للهِ فِي سِرٍّ وَفِي عَلَنٍ ... فَاللهُ جَلَّ لِمُوذِيهِ بِمِرْصَادِ
نَالَ الْخُرُوجَ عَنِ الأَوْطَانِ طَائِفَةٌ ... هُمْ لِلْخِيَارِ مَكَانَ الرَّاسِ وَالْهَادِي
فَكَانَ نُورًا عَلَى نُورٍ وَمَوْهِبَةٌ ... حُسْنَى تَؤُولُ إِلَى نَصْرٍ وَإِسْعَادِ
وَالتِّبْرُ يَخْلُصُ بِالإِيقَادِ جَوْهَرُهُ ... فَلَيْسَ عَارٌ عَلَى تِبْرٍ بِإِيقَادِ
وَكُلُّ ذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ وَعَنْ حِكَمٍ ... جَلِيلَةِ الْقَدْرِ لا تُحْصَى بِتَعْدَادِ
هَذَا الْخَلِيلُ وَذَا مُوسَى الْكَلِيمُ وَذَا ... نَبِيُّنَا الْمُصْطَفَى مِنْ ذَلِكَ النَّادِي
عَلَيْهِمُ صَلَوَاتُ اللهِ ثُمَّ عَلَى ... آلٍ وَصَحْبٍ وَأَتْبَاعٍ وَأَجْنَادِ

وممن شهد له بالفضل والولاية ومقام الغوثية العظمى العلامة الورع الزاهد الشيخ أحمد بن أحمذي الحسني، وقد اتصل به في أوان منفاه إلى أرض البيضان، ثم لم يزل يفد عليه كل رمضان، ولم يكن همه المال بل قال الشيخ عنه مرة وقد وزع أموالا على علماء ونساخ من البيضان وتركه هو فلم يعطه شيئا، وقال لهم: "هذا رجل لا يريد الدنيا ولا تريده الدنيا". وهو صاحب النظم الذي يتجاوز سبعة آلاف بيت في إيضاح بعض المشكلات في القرآن الكريم. قال الشيخ أحمد:

دَعْ ذِكْرَ أَيَّامٍ تَقَادَمَ فِي مَدَى ... عَصْرِ الشَّبِيبَةِ عَصْرُهَا وَلَيَالِ
وَاذْكُرْ مَحَاسِنَ أَحْمَدَ الْغَوْثِ الَّذِي ... طَابَتْ بِهِ الأَيَّامُ طِيبَ غَوَالِ
عِلْمًا إِذَا اضْطَرَبَتْ غَوَارِبُ مَوْجِهِ ... قَذَفَتْ إِلَيْكَ زَبَرْجَدًا وَلآلِي
عِلْمًا تَلَقَّاهُ مِنَ الْمَوْلَى بِلاَ ... قَلَمٍ وَلاَ خَطٍّ وَلاَ إِمْلاَلِ
وَمَعَارِفاً لَدُنِيَّةً تُرْمَى لَهُ ... فَيُضَاتُهَا بِالأُنْسِ وَالإِدْلاَلِ
شَهِدَ الْوَرَى طُرًّا بِأَنَّكَ غَوْثُهُمْ ... حَقًّا كَمَا شَهِدَتْ لِسَانُ الْحَالِ

وقال فيه أيضا:

هَذَا وَلَمْ أُجْبِ الْمَوَامِي تَرْتَمِي ... بِي الْعِيسُ بَيْنَ سَبَاسِبٍ وَرِمَالِ
لِمَنَالِ حَظٍّ عَاجِلٍ مِنْ عِنْدِكُمْ ... إِنِّي إِذَنْ فِي حَيْرَةٍ وَضَلاَلِ

وقال فيه أيضا:

إِذَا كَانَ قَصْدُ النَّاسِ قَطْعَ الْمَفَاوِزِ ... إِلَى الشَّيْخِ يَوْمًا لِابْتِغَاءِ الْجَوَائِزِ
فَقَصْدِي وَحَسْبِي أَنْ أَفُوزَ بِنَظْرَةٍ ... إِلَى وَجْهِ مَرْضِيٍّ لَدَى اللهِ جَائِزِ

وقال فيه أيضا:

خَدِيمُ الْمُصْطَفَى غَوْثُ الأَنِيمِ ... لِسَانُ الْحَالِ تَشْهَدُ لِلْخَدِيمِ
بِمِثْلِ الشَّيْخِ لَمْ نَسْمَعْ حَدِيثًا ... وَلا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ الْقَدِيمِ
أَيَا غَوْثَ الأَنَامِ خَدِيمَ طه ... أَنَخْتُ بِبَابِكُمْ نِضْوَ الْهُمُومِ
طَرِيدَ جَرَائِمٍ وَأَسِيرَ ذَنْبٍ ... أُرَجِّي الأَمْنَ مِنْ تِلْكَ الْجُرُومِ

ومنهم شيخنا العلامة الشريف محمد عال بن عبد الودود المباركي، فقد قدم عليه ومدحه بقصيدة، وذكر أنه فهم فيها كلمات فيها بُعْدٌ عن الأفهام مما يدل على ذكائه وتبحره في علوم العربية، قال:

يَا رُوحَ جِسْمِ الْوَرَى يَا زَيْنَ كُلِّ نَدِي بَقِيتَ مَا بَقِيَ الإِسْلامُ فِي الْبَلَدِ

إلي أن قال:

وَالْيَمُّ أجرى سَفِينًا وَهْوَ مُغْتَلِمٌ مِنْ فَيْضِكَ الْجَمِّ مَنْفُوضٌ مِنَ الْحَسَدِ

فقال الشيخ أحمد بنبه: مصاب بالحمى النافض، ثم قال الشيح محمد عال بعد أبيات:

إِذَا الْحَيَا أَخْلَفَتْ قَوْمًا مَوَاطِرُهُ جَلَوْا إِلَيْهِ وَإِنْ جَلُّوا بِلا نَكَدِ

فقال الشيخ أحمد بنبه: جَلَّ مِثْلُ جَلاَ، إلى أن قال الشيخ محمد عال:

مَا لِي حَكِيمٌ إِلَيْهِ مُنْتَهَى قُلُصِي إِلاَّ الَّذِي خَلَقَ الإِنْسَانَ فِي كَبَدِ

فقال الشيخ أحمد بنبه: حكيم بن المسيب، يعني أن الشيخ محمد عال يشير إلى بيت القحيف العقيلي في حكيم بن المسيب أحد بني قشير:

فَمَا رَجَعَتْ بِخَائِبَةٍ رِكَابٌ حَكِيمُ بْنُ الْمُسَيَّبِ مُنْتَهَاهَا

ومنهم العلامة اليعقوبي عبد الله العتيق بن ذي الخلال وفد عليه ومدحه بقصيدة مطلعها:

للهِ وَهْمٌ غَدَا مِنْ وَخْدِهِ حَرَضَا سَحَّ الحَمِيمُ عَلَى أَعْطَافِهِ رَحَضَا

إلى أن يقول:

عَافِيكَ طَالِعُهُ سَعْدٌ وَمَرْتَعُهُ سَعْدَانُ تُوضِحَ لاَ إِلْبُ عَلَى ضَضَضَا

ومنهم الولي الكامل الشريف التجاني الشيخ أحمد حماه الله بن محمد بن سيدنا عمر، أخبرني مريدوه والمتمسكون بطريقته أن بعض جلسائه ذكر الشيخ أحمد بنبه يوما فجرد اسمه من لفظة الشيخ، فقال له الشيخ حماه الله: ما هكذا وإنما اسمه الشيخ أحمد ينب، نطق اسمه بالياء المثناة بدل الباء الموحدة ومعنى ينب بالحسانية: يعلو, ثم خاطب المريدين قائلا: أيها المريدون اعلموا أن كلمة شيخ تتألف من ثلاثة أحرف, الشين: شاكر لنعم الله تعالى، والياء: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والخاء: خائف من مكر الله تعالى، فمن كانت فيه هذه الثلاثة فهو شيخ, ومن لم تكن فيه فليس بشيخ، والشيخ أحمد بنبه فيه هذه الخصال الثلاثة على وجه القطع.

ومنهم العلامة الورع محمد الأمين بن أحمد فال من آل بارك الله بن أحمد بزيد اليعقوبي الشهير بـ"اللَّأْوْ"، وكان آية في العلم والورع والزهد والصيانة وكان إمام مسجد أكجوجت، وقد صحبته مدة ودرست عليه أبوابا من مختصر الشيخ خليل.

أخبرني ابنه الثقة الصالح أحمد الفضيل أنه - أي محمد الأمين- كان مقيما في أهل أعمر نل من قبيلة تندغة فذهب مع بعضهم إلى السينغال لتسويق بعض المواشي وجاء إلى الموضع الذي فيه الشيخ أحمد بنبه، فنوى أن يصلي خلفه لينال المغفرة من عند الله تعالى لحسن ظنه به واعتقاده فيه الصلاح، ففعل ذلك ولكنه لم يستطع الوصول إلى الشيخ لكثرة الزحام عليه.

ومنهم العلامة الولي الكامل العالم العلامة الشريف الشيخ الترّاد بن العباس بن الشيخ الحضرمي بن الشيخ محمد فاضل، قال في كتابه "كشف الأستار عن شرف آل الجيه المختار" في ذكر من شهد بشرف آل الجيه المختار:

"وكفى بالولي الشهير والإمام الكبير الشيخ أحمد بنبه رحمه الله فإنه كان معترفا بفضلهم وشرفهم مؤثرا لهم على غيرهم، وبلغني من ثقة أنه يعتمد على كشفه في شرفهم".هـ.

وبلغني أن الشيخ الترّاد قال إنه لم يغبط أحدا من أهل عصره مثلما غبط الشيخ أحمد بنبه لأنه رآه يتقلب في مقام العبودية الخالصة لله تعالى.

ومنهم العلامة الصالح الشاب الورع محمد يحي بن ابوه اليعقوبي فقد ذكره في رحلته إلى الحج، وقد ذكر في أولها دراسته، وأورد بعض أشعاره، فقال:

"ثم سافرت إلى جهة السينغال فلما قربت من الغوث الكبير العلم الكبير الشيخ أحمد الخديم بن محمد بن حبيب الله قصدت إلى زيارته فنزلت عنده فقربني وأكرمني ودعا لي... إلى أن قال: ثم خرجت ثانية إلى الشيخ الخديم فقربني وآواني إليه وأكرمني إكراما زائدا على الأول وأبرز لي وللناس تصانيف يضيق عنها الحصر من نظم ونثر وتوسل ودعاء ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتقاد وفقه ونحو، كل ذلك على وجه بديع غريب".

وذكر في موضع آخر من الرحلة أنه كان ممن استفاد منهم علما وأن ابنه محمد البشير قرأ عليه من الألفية.

وقال في موضع آخر: "وقلت في الشيخ أحمدو بمب السوداني رضي الله عنه:

أَلشَّيْخُ أَحْمَدُ مَنْ عَنْهُ الْوَرَى حُجِبُوا وَلا غَرَابَةَ إِنْ مِنْ كُنْهِهِ عَجِبُوا

وقلت فيه أيضا:

مَحَطَّ رِحَالِ الْعُجْمِ قَدْ كُنْتَ وَالْعُرْبِ وَشَمْسَ ضُحًى فِي مَشْرِقِ الأَرْضِ وَالْغَرْبِ
وَهَلْ تَغْتَنِي الآفَاقُ عَنْ ضَوْءِ شَمْسِهَا وَعَنْ بَحْرِهَا الطَّامِي الْمُحِيطِ بِهَا الْعَذْبِ

ومنهم العلامة المتبحر في جميع الفنون محمد الخضر بن حبيب بن عبد الله المكي اليعقوبي ثم البركي صاحب "المفاد" في شرح نظم مختصر الشيخ خليل للشيخ محمد المام وغيره من التآليف الحسان، وكان معروفا بشدته على من يشم منه رائحة مخالفة السنة، وقد مدح الشيخ أحمد بنبه بقصيدة يقول فيها:

وَلَمَّا لَقِيتُ الشَّيْخَ أَحْمَدَ بُرْهَةً نَفَضْتُ يَمِينِي مِنْ غُبَارِ الْمَشَايِخ

وكتب له نظم خليل بيده وكتب في آخره: "كمل النظم بحمد الله وحسن عونه على يد محمد الخضر لشيخ المسلمين كافة سيدي أحمد بن محمد بن حبيب الله نفعنا الله به وبأمثاله، وقليل ما هم" وهذه النسخة عندي في مكتبتي.

وأخبرتني ابنته الصالحة المشاركة في العلوم مريم رحمها الله تعالى أن أباها لم يكن يقبل المال من الشيخ أحمد بنبه وكان يقول له إذا أعطاه شيئا منه: إن مالك محرق محرق محرق. يريد أن تتمحض علاقته به لله تعالى.

ومنهم عبد الله بن الشيخ محمد المام اليعقوبي ثم البركي وهو من أسرة مشهورة بالعلم والصلاح والغنى وكثرة الأتباع، مدحه بقصيدة يقول فيها:

أَأَحْمَدُ مَنْ سَرَّ الأَنَامَ وُجُودُهُ وَقَدْ فَاقَ أَشْيَاخاً تُقَاهُ وَجُودُهُ
وَيَا مَنْ سَمَا فِي حَضْرَةِ الْقُدْسِ نَاظِراً لِوَجْهِ رَسُولِ اللهِ فِيهَا شُهُودُهُ

ومنهم بابا بن محمودا بن محنض باب بن اعبيد الديماني سليل العلامة المشهور صاحب "الميسر" وغيره من التصانيف، وكان بابا أيضا بحرا من بحور العلم وقد قال في الشيخ قصائد عديدة، منها من قصيدة له:

وَمَنْ يُسَوِّيكَ وَالأَشْيَاخَ مَرْتَبَةً فَلَيْسَ يَدْرِي مِنَ اَيْنَ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ
حُزْتَ الْخِصَالَ الَّتِي تَسْمُو الرِّجَالُ بِهَا لكِنَّهُ قَدْ كَفَاكَ الْعِلْمُ وَالشَّرَفُ

وله من قصيدة أخرى:

عِنْدَ الْخَدِيمِ حَبَّ مِنْ خَدِيمِ خَدِيمِ طه الْمُصْطفى الْكَرِيمِ
شَيْخُ الْمَشَائِخِ عَلَى الْعُمُومِ مِنْ حَادِثٍ مِنْهُمْ وَمِنْ قَدِيمِ
نَادِرَةُ الدَّهْرِ بِدَا الإِقْلِيمِ أَعْجُوبَةٌ تَخْفَى عَنِ الْفُهُومِ

وقال فيه الأديب المجيد نجل المشائخ الأفاضل محمد الأمين بن الشيخ المعلوم البساتي القادري طريقة:

إِلَيْكَ وَإِلا فَالنَّجَائِبُ فِي تَعَبْ خَدِيمَ الَّذِي حَلَّى بِحُلَّتِهِ كَعَبْ
عَلَوْتَ الْوَرَى كَعْباً وَحَجُّوكَ كَعْبَةً وَمِنْ كُلِّ وَادٍ يَنْسِلُونَ وَمِنْ حَدَبْ
قَطَعْتُ إِلَيْكَ الْبَحْرَ وَالْبَحْرُ أَنْتَ هُو وَقَاطِعُ بَحْرٍ نَحْوَ بَحْرٍ مِنَ الْعَجَبْ

وقال فيه العلامة الصالح لكبيد بن دب التندغي صاحب العلامة الرباني الولي الكامل محمذ فال بن متالي:

أَبْهَى وَأَشْهَى التَّحِيَّاتِ الْعَلِيَّاتِ إِلَى الرِّضَى ذِي الْمَزِيَّاتِ الْجَلِيَّاتِ
غَوْثِ الْوَرَى أَحْمَدَ الْبَكِّيِّ وَارِثِ أَسْـ ـرَارِ الْعُلُومِ الْجَلِيَّاتِ الْخَفِيَّاتِ
مَنْ جَدَّدَ الدِّينَ إِذْ كَادَتْ تُطَمِّسُهُ أَهْلُ الْهَوَى وَرَدِيَّاتِ السَّجِيَّاتِ
وَصَانَ مِنْهُ الَّذِي رَامَتْ إِذَالَتَهُ صَوْلاتُ أَيْدٍ غَوِيَّاتٍ قَوِيَّاتِ
بَثَّ ظَاهِرَ شَرْعِيِّ الْعُلُومِ إِلَى أَسْرَارِ ذِكْرٍ شَهِيَّاتٍ بَهِيَّاتِ

وقال فيه العلامة الصالح القاضي محمذ بن محمد فال بن أحمد بن العاقل الديماني، وهو من أسرة عريقة في العلم والصلاح:

شَمْسُ الزَّمَانِ وَغَيْثُهُ وَغِيَاثُهُ وَنُجُومُهُ اللائِي بِهِنَّ هُدَاهُ
قَدْ قَادَهُ الْمَوْلَى إِلَى الْهَادِي كَمَا قَدْ قَادَهُ الْهَادِي إِلَى مَوْلاهُ
حِبُّ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وَخَدِيمُهُ فَكَأَنَّمَا تَلْقَاهُ إِذْ تَلْقَاهُ

وقال فيه أيضا:

كَاتِمُ مَا قَدْ نِلْتَ مِن رُتْبَةٍ عَلْيَاءَ لِلشَّمْسِ ضُحًى كَاتِمُ

وقال فيه أحمد محمود بن محنض يوسف التاشدبيتي:

تَحِيَّةٌ فَائِحٌ مِنْ طِيبِهَا أَرَجٌ لا طِيبُ غَانِيَةٍ فِي طَرْفِهَا دَعَجُ

إلى أن يقول:

أَرْجُو مِنَ اللهِ فَتْحَ الْعَارِفِينَ بِهِ ... عَسَى بِجَاهِكُمُ الأَسْدَادُ تَنْفَرِجُ
حَتَّى أُشَاهِدَ مِنْ عِلْمِ الْحَقِيقَةِ مَا ... يَهْدِي لِمَهْيَعِ حَقٍّ مَا بِهِ عَوَجُ
وَأَنْ أَرَى مِنْ نَبِيِّي مَنْظَراً بَهِجاً ... فَقُرَّةُ الْعَيْنِ ذَاكَ الْمَنْظَرُ الْبَهِجُ

وقال فيه أحمد بن محمد الكمليلي:

يَا مَنْ تِلادَ الْمَكْرُمَاتِ قَدِ امْتَطَى ... وطريفها، الأَوْلَى بِقَوْلِ الْمُخْبِرِ
وَإِذَا تُبَاعُ كَرِيمَةٌ أَوْ تُشْتَرَى ... فَسِوَاكَ بَائِعُهَا وَأَنْتَ الْمُشْتَرِي
عَفْرٌ لِوَجْهِ اللهِ وَجْهَكَ آخِرَ الـ ... ـلَيْلِ الْبَهِيمِ لِحَاجَتِي وَاسْتَغْفِرِ

وقال فيه العلامة الصالح الشريف أحمد بن الحسن بن حماد:

بَدْرُ الزَّمَانِ غُرَّةُ الإِسْلامِ ... قُطْبُ رَحَى أُولِي النُّهَي الأَعْلامِ
مَنْ خَاضَ زَاخِرَاتِ عِلْمِ الظَّاهِرِ ... بِفُلْكِ فَهْمٍ مِنْ أَرِيبٍ مَاهِرِ
وَغَاصَ فِي بَحْرِ الْحَقِيقَةِ إِلَى ... أَنْ حَازَ مَا حَازَ فَصَارَ مَوْئِلاَ
مِنَ الْفُيُوضِ وَالْكَرَامَاتِ الَّتِي ... مِنْهَا مُصَاحَبَةُ هَادِي الأُمَّةِ
أَكْرِمْ بِهَا كَرَامَةً وَمُعْجِزَهْ ... عَنْهَا الأَنَامُ ذَا الزَّمَانَ عَاجِزَهْ

وقال فيه محمد بن باب بن الشريف الصعيدي يشير إلى اجتماع الشيخ بالنبي صلى الله عليه وسلم:

خَوَارِقُهُ يَكْفِيكَ مِنْهَا رُجُوعُهُ ... عَلَى خَيْرِ حَالٍ بَعْدَمَا رَكِبَ الْبَحْرَا
وَلا فِعْلَ مِنْهُ دُونَ إِذْنِ نَبِيِّنَا ... وَحَسْبِي بِذَا فَخْرًا وَحَسْبِي بِهِ ذُخْرَا
وَبَايَعَهُ فِي الْبَحْرِ وَالْبَحْرُ مُزْبِدٌ ... فَنَالَ عَلَى أَعْدَائِهِ عِنْدَ ذَا نَصْرَا
عَلَى أَنَّهُ قُطْبُ الْبِلادِ وَغَوْثُهَا ... مُمِدُّ الْوَرَى فِي ذَاكَ أَحْسِبُهُ وِتْرَا

وقال فيه محمد بن الصوفي اليعقوبي:

إِبْنُ الْحَبِيبِ التَّقِي الْوَلِيُّ أَحْمَدُ مَنْ ... حَازَ الْمَرَامَ عَنِ الأَمْجَادِ وَالنُّبَلا
حَازَ الْمَحَامِدَ وَالْعُلُومَ أَجْمَعَهَا ... وَالْبِرَّ وَالْصِّدْقَ وَالصَّفَا وَفَاقَ عُلا

ومنها ما ذكره الشيخ البشير في كتابه (ص209، ج2) قال:

حكى علي الشيخ محمد بن احميد أنه كان ذات يوم يتحدث مع أستاذه علامة بني ديمان بل علامة الصحراء الكبرى قاطبة حامد بن محنض بابه في شأن شيخنا رضي الله عنه وكمال فضله، فقال حامد: "هذا الشيخ تكاملت فيه الفضائل والخصال الحميدة بقيامه بحقيقتي الزهد والاستقامة وتحتهما الأوصاف السلبية والإيجابية المطلوب استيفاؤها على وجوهها".

قلت ـ القائل الشيخ البشير ـ: وهذه الشهادة حق لم ينطق بها صاحبها عن هوى ولا عن عماية.

وحكى علي أخونا العلامة عبد القادر الكمليلي، وكان مع الشيخ باب بن حمدي، وله عنده مكانة وحظوة، أنه سأل الشيخ ذات يوم عن زيارة شيخنا رضي الله عنه وما حاله، فقال له: اعلم من ذلك ثلاثة أمور: أنه عالم وأديب وولي.

أما العلم فقد تكلمت معه فوجدته لا يخطئ الصواب في مواضع الغلط الكثير من العلماء. وولايته عندي لها دلائل يقينية. وأغرب شيء عندي أدبه المفقود في بني الزمن.

وقال فيه بعض أئمة العلويين وهو الشيخ محمد بن بدي، ذلك العارف السني المرضي عند الخاص والعام الذي لم يزل يصلي ورده في الليل بسبع القرآن، قال: إن ولاية الشيخ أحمد بنبه حفها بالشهود.

وقال نحوه ابن عمه إمام العلماء في زمنه الورع العدل الفقيه من يضرب المثل في حياته وبعد مماته بورعه محمد المختار قال: "إن ولاية الشيخ أحمد بنبه شهدت عليها قرائن أحواله حتى صارت بمنزلة القطع".

وكان الإمام صاحب الفتح محمد فال بن باب آخرهم وفاة، توفي هو وشيخنا في سنة واحدة كان يقول إذا ذكر عند أحد بالولاية من أهل زمنه: "أنا لا أشهد على ولاية أحد إلا على ولاية الشيخ أحمد بنبه الذي رأيت الأئمة العدول الذين عرفوه قطعوا بصحة ولايته كأحمد بن بدي والشيخ أحمد ومحمد المختار".اهـ كلام الشيخ البشير.

فجزاهم الله خيرا من أئمة نصح ما أعمتهم الرئاسة عن الصدع بالحق، وكانت لهم مندوحة عن التصريح بهذا، فإنهم علماء صلحاء أتقياء أئمة رؤساء مقلدون في أهليهم، فقهاء يرجع إلى فتواهم بنو عصرهم، متقيدون بورد من أعظم الأوراد موقعا، فما غين على قلوبهم، ولا غم على بصائرهم جزاهم الله خيرا.

وشهد له الشيخ الحاج مالك سي شيخ التجانية بالسنغال، كما في منن الباقي القديم (ص276 ج1)

قال: "إنه لو لم يكن له دليل على كمال الشيخ رضي الله عنه إلا صدق عقيدة امبك بص فيه وسلوكه على يديه مع معرفته له لكفاه حجة".

قال الشيخ البشير في الشيخ امبك بص هذا: "ما لقيت من العلماء والنساك من رؤساء العلماء والصوفية أحسن منه سمتا، ولا أقوم طريقة، ولا أسلم عقيدة، وأشد سلوكا، ولا أمثل حالا، ولا أذعن للعلم، ولا أبعد غورا فيه، ولا أحسن ديانة، فيما علمت منه".هـ.

وحدثني السيد الصالح البشير بن أدشاغ اعمر عن والده العلامة الولي محمد تلميذ الشيخ أن الشيخ كوشف بأن الشيخ الصالح العلامة يوسف النبهاني في ضائقة مالية شديدة فأرسل إليه مالا كثيرا، فكتب إليه النبهاني بهذه الأبيات:

حَوَى انْجَرِيمُ عُلُومًا لِلإِلهِ وَفَضْـ ـلاً لاَ يُمَنُّ وَفَضْلُ الْغَيْرِ مَمْنُونُ
حَوَى الْخَدِيمَ الَّذِي لَوْلاَهُ مَا سَجَدَتْ عَلى الْجِبَاهِ وَلَمْ تُقْرَأْ بِهِ نُونُ
إِنَّ امْرَأً قَاتَهُ الْمُخْتَارُ مِنْ مُضَرٍ وَفَاتَهُ خَادِمُ الْمُخْتَارِ مَغْبُونُ

وأخبرني بهذه القصة أيضا العالم الصالح أحمد يعقوب بن سيد إبراهيم عن محمد بن أدشاغ اعمر.

ومن شهد للشيخ بالولاية الشريف العلامة الولي الكامل المجاهد في سبيل الله تعالى ذي التأليف الكثيرة المفيدة، إمام زمنه في الشريعة والحقيقة الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل.

فقد أخبرني الشيخ محمد بن أدشاغ اعمر أنه أخبره العلامة عبد الطيف بن محمذ فال النمدكي أنه كان مريد الشيخ ماء العينين، ومكث معه مدة، وسأله قبيل وفاته عمن يشيخ بعده. فقاله إنه لا يعرف من يمكن تشييخه بعده سوى رجل يسمى أحمد بنبه، ويسمى الخديم، فذهب إليه بعد وفاة شيخه، ولازمه وصار يقرئ الطلاب العلم في محضرة الشيخ.

وقد تقدمت شهادة العلامة الصالح محمد فال بن محمذ بن أحمد بن العاقل للشيخ بأنه لا يوجد مثله في الغرب، ثم رأيت في "المنح المسكية" للشيخ محمد الأمين جوب ما يلي: حكى لي محمد بن أحمد بن علي اليعقوبي المعروف عند التلامذة بمحمد طوبي لكثرة إقامته مع الشيخ بها أنه في بعض زياراته لأخواله إدابهم اجتمع بفريد عصر محب النبي صلى الله عليه وسلم وخديمه محمد فال بن أحمد بن العاقل، فاستحمله سلاما وزيارة إلى الشيخ وطلب منه فضلة لباس مما يلي جسده يتبرك به.

قال: فبلغت كل ذلك للشيخ فاستبشر به وأعطاه شعارا صغيرا كان يلي جسده، فقال: أعجل به إليه. فأتيته به فاستبشر به غاية، وصار يشمه ويضعه على رأسه وعينيه فتسامع الناس به، فصار كل من أتاه يطالبه بالتبرك به حتى ضيعوه عليه، فطالبني أن أعود إليه ثانيا وأقول له: إن الناس ضيعوا علي بركته فليمن علي بثانية.

فأتيت الشيخ وقلت له ذلك، فاستبشر وأعطاني ثانيا فأتيته به، فشكر الله وأثنى على الشيخ كثيرا، وشكر لي سعي معه. وذكر العلوي في "النفحات المسكية" أن العلامة الولي محمد فال المذكور قال إنه ما سر بشيء منذ زمن كسروره بذلك الثوب الذي أرسله الشيخ.

ومنهم الشيخ الصالح الزاهد المشهور بالولاية الشيخ المستعين الكمليلي القادري طريقة، كما قال العلامة الشاعر محمد عبد الله بن عبيد الرحمن العلوي في كتابه "النفحات المسكية في السيرة البكية" ص24:

سمعت أن الشيخ المستعين بن طلحة الكمليلي قال: إنه لو شاء عدم الذهاب لما قدروا على إخراجه من أرضه وكفى به ثقة. وقد أشرت لذلك في القصيدة السابقة بقولي:

وَلَوْ شَاءَ مَا رَامَ النَّصَارَى خُرُوجَهُ وَلَكِنَّهُ اخْتَارَ التَّفَرُّدَ لِلْبَرِّ

وكان الشيخ المستعين المذكور يزوره من بعيد راجلا، ويأبى عن أخذ ماله، وإذا أعطاه سريرا كان يصلي عليه يأخذه ويضمه ويتحفظ عليه.هـ.كلامه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثالث في كرامات الشيخ

وأول كرامة أذكرها هنا هي ما حمل عليه نفسه من العبادة الشاقة التي لازمها طيلة حياته والتي تصدق فيها الكلمة: "إن من خرق العادة في نفسه خرق الله له العوائد".

فقد أعان الله تعالى هذا الشيخ على تحمل نمط من العبادة يبدو مستحيلا لأول وهلة.

من ذلك أنه كان ملازما للطهارة فلا يحدث إلا توضأ وصلى ما كتب له من النافلة، ولا يصلي فريضتين بوضوء واحد بل يجدد وضوءه لكل فرض، وكان لا يصلي صلاة فريضة إلا في الجماعة.

وكان لا يفطر من أيام الدهر إلا الفطر والعيد.

وكان لا يجعل بينه وبين الأرض فراشا في عبادة ولا في غيرها في أغلب الأحوال.

وكان لا ينام إلا لماما لانشغاله بالعبادة.

وكان لا يمس جلده جلد كافر باختياره، وقد عرّضه ذلك لسخط الحكام الفرنسيين، وناله منهم الأذى الكثير.

وكان طعامه مع ذلك في غاية البساطة، فكثيرا ما كان قوته قليلا من الكسكس مسقيا بالماء القراح.

هذا مع شدة إقبال الدنيا عليه ووفرتها لديه، ولكنه كان يريها الصدود والهجران ويوزعها على قاصديه.

ومن أعظم كراماته على الإطلاق لقاؤه للنبي صلى الله عليه وسلم، ومشاهدته له يقظة على الدوام، وأخذه عنه الورد المبارك، واستشارته له، وتعلمه منه، وسؤاله صلى الله عليه وسلم عما أشكل عليه من الأمور.

وقد تقدم في مقدمة الكتاب الحديث عن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة، وأن الأولياء يرونه ويأخذون منه العلوم.

فنسأله تعالى أن يجمعنا به صلى الله عليه وسلم يقظة ومناما دنيا وآخرة إنه سميع مجيب.

ومن كراماته أيضا كثرة من هدى الله تعالى به من الناس، فمريدوه منتشرون في البلاد. فمنهم من كان كافرا فهداه الله إلى الإسلام، ومنهم من كان مسلما سائرا في طريق المعاصي والغفلة فهداه الله تعالى إلى الاستقامة والمعرفة.

وقد وضع الله تعالى له القبول عند جمع المسلمين حتى أن البيضان تتلمذ له منهم الجمع الغفير ومدحوه بالشعر الحساني والفصيح؛ وسمى كثير منهم به أبناءهم، فاسم بنبه وأحمد بنبه والكوري والشيخ امبك وأحمد كوري والخديم، هي أسماء صارت واسعة الانتشار في

البيضان تبركا بالشيخ؛ ونجد اسم بنبه للذكور والإناث على السواء كما نجد عند العرب القدماء اسم هند للرجل والمرأة مثل هند بن هند رضي الله عنه ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ أمه أمنا خديجة رضي الله عنها، ومثل هند بنت عتبة رضي الله عنها. وكذلك نجد عندهم أسماء للرجل والمرأة مثل أسماء بن خارجة، وأسماء بنت عميس رضي الله عنها.

ومن أعظم كرامات الشيخ أحمد بنبه أنه لا يذكر إلا ذكر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقال: "خديم رسول الله صلى الله عليه وسلم".

ولم نسمع أن أحدا من الصالحين قبله لزمه لقب مثل هذا حتى لا يعر ف إلا به ولا يذكر إلا ذكر معه، فهذا في نظري كرامة ادخرها الله تعالى لهذا العبد الصالح الذي برز في آخر الزمان وفي أقصى الأقطار الإسلامية والله يؤتي فضله من يشاء.

وإذا كان أمير الشعراء يفتخر قائلا:

شَاعِرُ الأمِيرِ وَمَا بِالْقَلِيلِ ذَا اللَّقَبُ

فماذا نقول عن "خديم رسول الله صلى الله عليه وسلم":

رُتَبٌ تَسْقُطُ الأمَانِيُّ حَسْرَى دُونَهَا مَا وَرَائَهُنَّ وَرَاءُ

وأما كراماته الحسية فإنها كثيرة جدا لا يحصيها سفر، ولم يجمعها - فيما أعلم- أحد، وقد ضاع أكثرها.

فأنا أذكر منها ما بلغني عن طريق مريديه الكبيرين الوليين العالمين الشاعرين اللذين أتيح لي التبرك بصحبتهما والانتساب إلى جنابهما وهما: الشيخ سيد أحمد بن اسمه الديماني، والشيخ محمد بن أدشاغ اعمر اليعقوبي.

فقد سمعت منهما بعض كراماته وأخباره، وسمعت بعض ذلك من أبنائهما وتلامذتهما مثل العالم الصالح عبد الله بن سيد أحمد بن اسمه، ومثل خليفة الشيخ محمد بن أدشاغ اعمر وحامل سره وهو ابنه الصالح البشير، ومثل السيدين الصالحين الثقتين أحمد يعقوب بن سيد إبراهيم البركي، وأحمد بن بابا بن محنض باب بن اعبيد الديماني وغيرهم.

فمنها أن مريده الشيخ سيد أحمد بن اسمه كان معه في السينغال، فأراد السفر إلى أهله في بلاد موريتانيا فجاءه ليودعه فأخذ بيده وقال له: سالكة سالكة, ثم قرأ الآية (قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوُ ادْعُوا الرَّحْمَنَ) وودعه.

فذهب سيد أحمد ولم يفهم ما يريد الشيخ. فكان من قضاء الله تعالى أنه تزوج السالكة بنت شگاف من بني دليم. ولم يكن ذلك يدور في خلد أحد لبعد ما بين القبيلتين، وانعدام التصاهر بينهما، ورزق منها ابنيه الوحيدين عبد الله وعبد الرحمن.

وكان الشيخ سيد أحمد مريدا صادقا ناصحا، فكان يفاتح الشيخ بما في نفسه، بل كان الشيخ يخبره عما في ضميره ويجيبه دون أن يسأله هو عن شيء. فمن ذلك أنه - أي الشيخ سيد أحمد - اعترته مرة حال عظيمة من الفرح بالمنعم جل وعلا وهو في صلاته حتى كاد يفقد توازنه وصوابه، ولكنه واصل صلاته حتى أتمها فلما جاء إلى الشيخ، قال له الشيخ: أحسنت الأدب مع الله.

ومرة أتاه وهو - أي سيد أحمد - إذ ذاك في حالة من الزهد في الدنيا حتى أنه كان يذهب إلى الحانوت لشراء حاجة فيأخذها ولا يأخذ ما يعيد إليه صاحب الحانون من الصرف، فقال له الشيخ: "يا سيد الدنيا الحرام والمكروه! الدنيا الحرام والمكروه!"

يعني أن الدنيا المذمومة هي الحرام والمكروه، وأما ما يستعان به على المعيشة من أصل حلال، فليس حراما ولا مكروها ولا مذموما.

وكان الشيخ محمد بن أدشاغ اعمر عند الشيخ الخديم في خدمته في السينغال وكان يكتب له المصاحف بخطه الجيد حتى كتب له منها 33 مصحفا، ولم يكن يأخذ منه شيئا من المال.

وذات مرة أصابته خصاصة، وركبته ديون، فناداه الشيخ وأعطاه أوقية من الفضة البيضاء، وكان التعامل إذ ذاك بها.

فقال له: أعوذ بالله منها، فقال له الشيخ: خذها.

قال محمد: فأخذتها كارها لها وفي نيتي إعادتها إليه يوما ما.

فلم أمر على أحد حينئذ وإلا وأعطاني هدية، وكنت أمر على المعارف الذين أعيش معهم وألقاهم لليوم الواحد مرات فلا يهدون إلي، فصاروا يهدون إلي لما صارت الأوقية معي حتى حصل عندي ما انتعشت به، وقضيت ديني وأثثت دارا. ثم مررت بالشيخ يوما فقال لي: رد الأوقية. فرددتها إليه فانقطعت الهدايا التي كانت تأتيني.

وكان الناس ينتجعون الشيخ بكثرة، ما بين باحث عن سلوك طريق الآخرة، وطالب عرضا من الدنيا، فكان يروي غليل كل زائر، ووقعت له في ذلك طرائف كثيرة وكشوفات ودعوات.

أخبرني العلامة المؤرخ الشاعر المختار بن حامد أنه سافر في رفقة فيها عمه عبد الله بن محمذ بن محنض بابه بن اعبيد قاصدين الشيخ في بلده، وكان السفر على الإبل، ولقوا فيه نصبا ومخمصة.

فلما قدموا إلى بلد الشيخ قال لهم الناس إن الشيخ معتكف في عبادته منذ كذا يوما ولم يبرز للناس.

قال المختار: فقلت في نفسي - وكنت إذ ذاك شابا ابن صومين أو نحو ذلك-: إذا كانت ولاية الشيخ صحيحة يرسل إلينا الآن ويزيل عنا ما نحن فيه من آثار السفر. فلم يلبث أن جاء تلميذ للشيخ وقال لنا: الشيخ يطلبكم، فذهبنا إليه بأجمعنا، فسقانا الشاي وأطعمنا، وقال لنا: كنت جعلت ماء في إناء منذ أيام لأتطهر به ثم نسيته إلى الآن فقيل لي: اصنع به شايا للرفقة التي قدمت الآن.

ثم لبثوا أياما في ضيافة الشيخ قال المختار: فقلت ذات يوم في نفسي: إن كانت ولاية الشيخ صحيحة يرسل إلينا ويزودنا بما يزود به ويدعنا نعود إلى أهلنا فإني اشتقت إلى الأهل.

فلم ألبث أن جاء تلميذ للشيخ وقال لي: الشيخ يطلبك أنت والعم فقط. فذهبت إليه أنا وعمي. وبعد المحادثة، أخذ شيئا من الفضة وأعطاه لعمي ثم أخذ شيئا آخر منها وأعطاه لي، فقلت في نفسي: لا شك أنه آثره علي. أي أعطاه أكثر مما أعطاني. فالتفت إلي الشيخ وقال: هو مثله هو مثله.

وأخبرني رجل كان في حي في البادية فيه السيد محمد بن داداه والد المختار بن داداه رئيس موريتانيا السابق، قال: نزل عندي ضيوف من بينهم شيخ كبير يدعى فلان بن اتْشَ فبات يصلي بالقرآن.

فلما أصبحت أتيت محمد بن داداه وأخبرته بخبر ذلك الشيخ متعجبا من شأنه فقال لي: إن لذلك الشيخ قصة، وذلك أنا ذهبنا على الإبل من بوتلميت وفينا شيخنا ابن داداه إلى محل الشيخ أحمد بنبه، ونحن رفقة تقارب الثلاثين.

فلما قدمنا سلمنا عليه وعدنا إلى محل نزولنا، ثم إنه أرسل إلى الرفقة ما عدا ابني داداه فأتته الرفقة، فقال لهم: ما ذا تريدون الآخرة أم الدنيا؟ فسكتوا سوى ابن اتْشَ، قال له: أريد الآخرة، فأدناه منه ودعا له بما دعا له به، وأمره أن يخرج فخرج، وبقي رفاقه فأعطاهم الشيخ من الفضة فكانت حصصهم متقاربة ثلاثا وعشرين أوقية لكل واحد.

فلما خرجوا قال لهم أحدهم: إنكم لا تستطيعون أن تحرموا ابن اتْشَ فإنه خيركم في السفر وهو الذي يأتيكم بالإبل وهو خيركم في السقي على البير إذا وردتموه، فأعطاه كل واحد منهم أوقية حتى حصل على مثل نصيب أحدهم، وكان عمره إذ ذاك دون العشرين سنة فتغير مجرى حياته فذهب من فوره إلى أَزْوَادْ حيث تعلم القرآن والعلم عند أهل الشيخ سيد المختار الكنتي، وصار ممن يوثرون الحياة الآخرة على الأولى.

وأخبرني شيخنا العلامة الصالح الشريف محمد عال بن عبد الودود المباركي أنه قدم إلى الشيخ صحبة العلامة اللغوي عبد الله العتيق بن ذي الخلال اليعقوبي، قال محمد عال: فاستدناني وشرع يفسر لي هذا البيت من ألفية ابن مالك:

وَمَا لِذِي غَيْبَةٍ أَوْ حُضُور كَأَنْتَ وَهْوَ سَمٍّ بالضَّمِير

فعجبت من اعتنائه بي ولا أدري أتفسيره لي لبيت من الألفية إشارة إلى أني سأكون من أهل النحو أم ماذا يعني ذلك؟

وقد شرحه له شرحا صوفيا، فلعله رضي الله عنه أشار بذلك إلى أن الشيخ محمد عال سيصير إماما في النحو وصالحا.

فإنه كان معروفا بالكشف والكرامات، يعرف ذلك طلابه وجيرته، وكان إماما في سائر الفنون الشرعية رحمه الله تعالى وأفاض علينا من بركاته.

وأخبرني الشيخ الصالح الزاهد محمد يحظيه بن أحمد بن أحمد زين اليدالي أن أباه أحمد كان تلميذا للشيخ ولازمه ست عشرة سنة لا يكاد يفارقه، وكان لا يحجب عنه بل يدخل متى شاء، وكان الشيخ يسميه أحمد القارئ لحسن صوته بالقراءة. وكان صالحا مكاشفا وأخبره أنه لم ير الشيخ نائما ولا شاربا ولا آكلا إلا مرة واحدة.

وأخبره أنه خرج مسافرا من بلده بالصحراء هو وأخوه الأكبر محمد عال ومعهما ابن عمهما أحمد سالم بن ببكر بن الإمام الملقب التام قاصدين الشيخ بمدينة انجاريم بالسنغال، فلما كانوا على مسافة روحة من المدينة هجروا بالرواح لعلهم يدخلون المدينة قبل الليل، لأن النصارى في ذلك الوقت كانوا يحاصرون الشيخ في الليل بعساكرهم، فلا يدعون أحدا يأتي مساكن الشيخ إلى الصباح، فقال محمد عال لرفيقيه على سبيل المزاح وتزجية الوقت: ليتمن كل واحد منا عشاءه الليلة.

وسأبدأ أنا وسأقول ما قالت الفتاة الماضية لأختها، وذلك أنهما خرجتا مع أهل الإبل الرحل طلبا للبن، ولم يكن لهما مطية، ورحل أهل الإبل يوما فتعبت الفتاتان وأصابهما الشوك في أرجلهما، فقالت الصغرى منهما: إذا رجعنا وأتى الصيف فسنصنع حصيرا ونبيعه في جذع حمير نتعاقب عليه في السفر، فقالت لها الكبرى: إنما هي أمنية فافردي لنا، وهي عبارة حسانية عن ركوب المرأة على جملها الخاص بها.

قال محمد عال: فأنا أتمنى العشاء بلبن ناقة عليه رغوته. وإنما قال ذلك لأن الإبل لا توجد في ذلك المحل.

وقال أحمد سالم: أتمنى العشاء بالعيش الجيد بلبن البقر.

وقال أحمد: أنا لا أتمنى إلا العشاء بفضلة الشيخ.

فلما آن المساء عرفوا أنهم لا يستطيعون الدخول إلى دور الشيخ قبل الليل، فقال لهم محمد عال: إن الشيخ لا يصلي العشاء حتى يختم هو وتلاميذه القرآن ثمان مرات يوزعونها بينهم كما يفعل بعد كل فرض، وحتى يؤذن المؤذنون سبع مرات، وفي ذلك نكون قد اقتربنا من المدينة فنحط رحالنا ونقيد جمالنا وإذا سمعنا الإقامة أسرعنا إلى المسجد فيظن الجنود أننا من أهل المدينة أتينا للصلاة فيدعوننا نمر.

وهكذا كان؛ فأدركوا صلاة العشاء مع الشيخ، فلما سلم خرج من محرابه وأتى إلى مؤخرة الصفوف ونادى: "أين محمد عال وأخواه؟"، فأمر أخا له أن يذهب بهم ليضيفهم في المنزل الفلاني، فشرعوا يصنعون لهم الشاي، فلم يلبثوا أن جاءهم أحد التلاميذ يحمل إناء كبيرا عليه غطاؤه، فإذا هو لبن الإبل عليه رغوته، فشربوا منه قبل الشاي؛ ولما انتهى الشاي أتاهم تلميذ آخر ومعه إناء فيه العيش ولبن البقر، فأكلوا وانبسطوا وتعجبوا من كشف الشيخ. فقال لهم أحمد: إن ما تمنيته أنا أيضا لا بد أن يقع.

فلما مضى كثير من الليل وأضاء قمر ليلة عشرين من الشهر وهدأت الرجل إذا بشخصين يحملان إناء بينهما فوضعاه قربهم وأخذ أحد الشخصين من ذلك الإناء ثلاث لقمات ورفع يده ومضى فأخذ الشخص الآخر الإناء، ووضعه بين أيدي الرفقة، فإذا كسكس، فأخذ محمد عال بثوب ذلك الشخص وقال له: من الشخص الذي كان معك؟ فقال له: ذلك الشيخ.

فأكلوا أيضا ما شاء الله من ذلك الطعام.

فلما أصبحوا خرجوا يسألون عن خبر لبن الإبل والعيش المصنوع صناعة أهل القبلة -أي بلدهم الذي كانوا فيه-، فوجدوا أن اللبن أتى به رجل كان يحمل بضاعته على ناقة حلوب وبات في تلك المدينة فحلب ناقته وأهدى لبنها للشيخ.

وأما العيش فإن امرأة من أهل القبلة كانت عرفت الشيخ زمن تغريب النصارى له في بلاد القبلة، ثم إنها قدمت على الشيخ زائرة فصنعت العيش بيدها وأهدته له تلك الليلة.

فلم يدروا أي الأمرين أعجب، التوفيق الذي منّ الله به على الشيخ في تيسير هذه الأطعمة له أم كشفه الصحيح، نفعنا الله ببركته.

وأخبرني محمد يحظيه أيضا أن والده أحمد بن أحمد زين أخبره أنه كان مسافرا على قلوص، فنزل عنها وتركها باركة وعليها متاعه.

فوثبت من مبركها وأخذت تعدو هاربة فتبعها حتى صار بينه وبينها مسافة غير قصيرة وكادت تغيب عن نظره، ويئس من اللحاق بها فنادى شيخه الشيخ أحمد بنبه مستغيثا به، فما كان من شأن القلوص إلا أن وقفت وبقيت واقفة حتى لحق بها وأخذ بزمامها.

ومن كراماته الجليلة ما ظهر من بركة دعائه لأناس حفظوا القرآن لما دعا لهم بصفة خارقة للعادة كما سبق في قصة ابن انْشَ.

ومن ذلك ما وقع له مع تلميذه محمد فال بن احبظ التامقلاوي وذلك أنه زاره لحفظ القرآن، أي طلب منه الدعاء لذلك، فلما رأوا هلال رمضان تلا الشيخ الآية (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ) الآية، ثم كتب كتابا وأعطاه لمحمد فال فأصبح محمد فال وهو يحفظ القرآن، فأمره الشيخ بملازمة تلاوته، فكان يتلوه جالسا وماشيا وعلى كل أحواله حتى سماه الناس محمد فال القرآن بالإضافة.

ووقعت له معه كرامة أخرى وذلك أن الشيخ لما صلى بالناس العصر يوم السبت 14 محرم سنة 1346هـ قال: أين محمد فال بن احبظ؟ فلما أتاه، قال له: كملت خصالك وبقيت لك واحدة، فقال له: ما هي؟ فقال الشيخ: "نعم نعم حان الأمر". ومنذ ذلك الوقت لم ير أحد من الناس الشيخ فيما يحكى، بل دخل متعبده وبقي فيه إلى ليلة الأربعاء. فكوشف الشيخ المصطفى ابن الشيخ وخليفته بأن الشيخ توفي، وكان في ناحية قرية اللوگة بالسنغال، فأخذ سيارته وانسل من بين أتباعه وذهب إلى انجاريم حيث يوجد الشيخ، فلما قدمها ذهب إلى أخويه الشيخ الفاضل والشيخ البشير، وذهبوا جميعا إلى محل الشيخ فوجدوا الشيخ قد توفي وهو ساجد وحوله مكتوب فيه وصية أن يغسله أبناؤه الثلاثة المذكورون ومعهم محمد فال بن احبظ فنادوا محمد فال، فغسله معهم.

ومن كراماته رضي الله عنه أن محمد بن أدشاغ اعمر والد محمد كان حسن الخط وكان من أهل حفظ القرآن ومعرفة علومه، فكتب بيده مصحفا للشيخ، وكان الشيخ يحب كثرة المصاحف. فلما أتاه به أخذه الشيخ وألصقه بصدره وقال لمحمد على الفور: ليس في هذا المصحف من خطأ سوى شدة كاف لعلك نسيتها (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ)، فنظر في المصحف فإذ هو قد نسي أن يضع الشدة على ذلك الكاف.

وكان سبب لقاء محمد للشيخ أن محمدا كان تلميذا للشيخ الصالح باب بن حمدي فأمره أن يذهب إلى الشيخ ليأخذ الورد، فقدم عليه في بلاد موريتانيا زمن تغريب النصارى له إليها، فأخذ عنه ولازمه وكتب له بيده ستة وستين مصحفا.

ثم إن ابنه محمد أخذ ورد الشيخ ولازمه، وكتب له بيده ثلاثة وثلاثين مصحفا، ووقعت له معه كرامات كثيرة.

فلما كان قبل وفاة الشيخ بنصف شهر ناداه وقال له: اذهب إلى اندر وقد أذنت لك في مطالعة الكتب. فذهب إلى اندر وهي مدينة من أكبر مدن السنغال، فكان ظهوره فيها، وكان يذهب إلى مكتبة آل ابن المقداد فيها، فيأخذ الكتاب فيطالعه مطالعة وجيزة، فإذا هو يعرف ما يحويه حتى بلغ مصاف العلماء.

ومما جرى له مع الشيخ أنه تورمت يده ورما شديدا حتى خاف على نفسه، ذات يوم استدعاه الشيخ وأعطاه رزمة من الأوراق ليكتبها له، وكان حسن الخط، فقال له: يا سيدي إنكم غير مطلعين على حالي، فإن يدي مصابة بمرض شديد لا أستطيع معه الكتابة ولا أي عمل. فأمسك الشيخ بيده وهزها وقال له: سترى فيها خرق عادات.

فذهب وقد اختفى الورم وبرئ كلية وكتب ما أمره بكتابته وكان يقول بعد ذلك: إني لأرجو من قوله ذلك أكثر من البرء من ذلك المرض، بل أرجو أن تكون في يدي خوارق العادات.

ومن كراماته أنه لما كان في بلاد موريتانيا في تغريب النصارى له أتاه أحد أبناء العلامة الولي أحمد بن بدي العلوي التجاني. فأمره الشيخ بالرجوع إلى والده بسرعة ليدركه.

وتوفي العلامة أحمد بن بدي في تلك الآونة، فخرج الشيخ إلى أصحابه وقال لهم إن النبي صلى الله عليه وسلم أتاه وعيناه مغرورقتان. وقال له: توفي رجل لم يكن على وجه الأرض أحب إلى الله ورسوله منه - يعني به أحمد المذكور-.

فانظروا رحمكم الله تعالى إلى هذا الصفاء والتجرد من الحظوظ في هذه الشهادة بالفضل لهذا الرجل الذي ليس من طريقة الشيخ ولا من أهله.

ولا غرابة في ذلك، فإن أهل الله ليسوا من أهل الحظوظ ولا الحسد ولا الاعتراض على اختيار بارئهم تعالى، وقد وجدنا عند أحمد المذكور شهادة بفضل الشيخ وتفرده في المضمار تدل على تجرد أحمد أيضا وصفائه وتسلميه باختيار مولاه.

فجزاهما الله أحسن جزائه وأفاض علينا من بركاتهما.

ومنها ما وقع له مع العالمين الجليلين عبد الله العتيق بن ذي الخلال اليعقوبي ومحمد عال بن عبد الودود المباركي فقد قدما عليه ومدحاه بقصيدتين تقدمت الإشارة إليهما.

وأخبرني شيخنا محمد عال أنه لما أتاه استدعاه وأدناه منه وشرع يشرح له بيتا من ألفية ابن مالك. وكان ذلك إشارة منه إلى أنه سيكون إماما في النحو. فكان رحمه الله تعالى إماما في النحو وسائر الفنون.

وأخبرني التندغي بن عبد الله العتيق المذكور أن والدته الرابية بنت الدَّدَوْ أخبرته أنها ولد لها أولاد قبله وماتوا صغارا، وأن عبد الله العقيق ذهب إلى الشيخ يلتمس منه دعاء ليعيش أولاده، فلما أتاه وأنشده القصيدة، قال له الشيخ دون أن يخبره هو بمكنون أمره: "إنه سيولد لك ولد فأعطه هذه الأوراق إذا كبر، فقد أعطيته سرها". فلما كبر التندغي أعطوه تلك الأوراق وفيها أدعية وأسرار.

وكان من خبر عبد الله العتيق مع الشيخ أحمد بنبه أنه لما أنشده القصيدة قال الشيخ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (226)) وسكت، فقال له عبد الله العتيق: واصل قراءتك. فضحك الشيخ ووضع يده في يد عبد الله العتيق؛ والإشارة في ذلك إلى قوله تعالى عقب الآية السابقة: (إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ).

وكان الشيخ يحذر دائما من إطراء الشعراء له ويقول: "إن الإطراء يبعث العجب في النفس".

ثم إن عبد لله العتيق سأل الشيخ عن معنى كلمة من العربية ورد ذكرها خلال الحديث، فقال الشيخ: "سبحان الله! ابن ذي الخلال يسأل عن كلمة من اللغة العربية!".

وكان عبد الله العتيق من كبار علماء اللغة، وقد رأى أحد الصالحين النبي صلى الله عليه وسلم، وعبد الله العتيق جالس عن يمينه، وهو صلى الله عليه وسلم محتف به لمعرفته باللغة العربية.

ومنها ما وقع له مع العالم الصالح محمذ فال بن سيد إبراهيم اليعقوبي ثم البركي، فيما أخبرني ابنه الصالح الصدوق المشارك في مختلف العلوم أحمد يعقوب، أنه – أي محمذ فال - كان يدرس في محظرة العلامة الشهير يحظيه بن عبد الودود، فنزلوا قريبا من المحل الذي كان فيه الشيخ أحمد بنبه في منفاه في أرض البيضان، فذهب محمذ فال في عطلة الأسبوع الدراسي، أي يومي الخميس والجمعة، لزيارة الشيخ وأوصاه أحد معارفه المتسمين بالصلاح، أن يسأل له الشيخ عن مقامه عند الله، وكان محمذ فال عنده شرح "إضاءة الدجنة" للعلامة محمد عبد الله بن النون اليعقوبي، فأهداه للشيخ وبلغه رسالة الرجل عن مقامه، وكان في نيته أن يسأل عن مقام نفسه، لكنه استحيى فقال له الشيخ: البث قليلا حتى يأتيني الصادق الأمين، فسكت عنه الشيخ قليلا ثم قال له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنك أنت من (السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11))، فكان هذا بشارة وكشفا من الشيخ وأما الرجل فلم يجب على سؤاله.

ثم إن محمذ فال صار يأتي إلى الشيخ كل خميس للزيارة. وكان أحيانا يأكل معه من طعام عشائه وكان طعاما ساذجا ماسخا بلا إدام ولا توابل.

ومرة كان معه فرأوا كثيرا من الناس مقبلين إلى الشيخ فقال له الشيخ: "سبحان الله أهذا كله يطلب الدنيا". وكان يدعوه بصاحب الإضاءة.

ومنها ما وقع له مع أحد أصحاب العارف بالله تعالى الشيخ المستعين الكمليلي رضي الله عنه ونفعنا ببركاته. وذلك أن أحد أصحابه من أهل العلم أنكر عليه شيئا فقال له: أترضى أن يكون الشيخ أحمد بنبه حكما بيننا، فقال: نعم. فسافر ذلك الرجل إلى الشيخ أحمد بنبه فلما سلم عليه قال له بديهة قبل أن يكلمه بشيء مما في ضميره: الشيخ المستعين صاحب السنة ومخالف البدعة، وأنت قال الصحابي الفلاني من أهل بدر إنك ألفت في أسماء أهل بدر ولم تذكره فيهم، فقال الرجل: إني لم أؤلف قط في أسماء أهل بدر، فقال الشيخ: بلى، قد ألفت فيهم.

ثم إن ذلك الرجل لما فتش كتبه وجد أنه كان قد نظم أسماءهم في شبابه وأنه لم يذكر ذلك الصحابي رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

ومنها ما وقع له مع أحد القادمين عليه من معارف الولي الشهير والقطب الكبير المجاهد في سبيل الله تعالى العلامة الشريف الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل. وكان ذلك الشخص من أهل العلم والعبادة، وقد نزل في مكان بعيد من مقر الشيخ يفكر ذات ليلة، وقال في نفسه: إن ما يفعله بعض المشايخ من أخذ الهدايا من الناس غير مشروع.

فبينما هو في تفكيره هذا إذ أتاه أحد مريدي الشيخ أحمد بنبه ومعه بطاقة فيها أن فلانا قد حط الله درجته بكذا درجة بسبب اتهامه لأحد أولياء الصحراء بمخالفة الشرع الشريف.

ففزع ذلك الرجل أشد الفزع وعلم أن ما وجه إليه الشيخ حق، وأنه هو كان على خطأ في اتهامه لذلك الولي وأخذ في الانتحاب والتوبة، فلما لبث ساعة في ذلك وقد كادت روحه تزهق خوفا وندما، إذا بآتٍ من عند الشيخ بيده بطاقة فيها أن الله قد قبل توبة فلان ورفع درجته بتوبته.

وأخبرني عبد الله بن عبدم بن لكباد، من أهل بوحبين ثم من أولاد حبين، أن والده كان تلميذا في الباطن لابن عمه ابَيَّاه بن ويلاَّه، وكان ذلك مريدا للشيخ سعد أبيه، ثم لم يعمر ابياه، فأخذ عن الشيخ سيد المختار بن عبد الجليل التندغي ثم من حلة أربعين جيدا.

ثم إن الشيخ سيد المختار قال لتلميذه ابن عبدم: أريد أن أكشف لك شيئا، ولم يمكني ذلك؛ فاذهب إلى الشيخ أحمد بنبه يكشف لك عنه. وذهب به إلى قرية دارا جلف وأمره بالذهاب إلى الشيخ في انجاريم، فذهب إليه، فلما اقترب من المدينة لقيه وهو يحتطب مع تلاميذ له، وبيده حزمة حطب يخاطبه الشيخ باسمه، ووضع يده على عاتقه، ولما أراد هو أن يحمل الحطب عن الشيخ أبى الشيخ عن ذلك وذهب به إلى منزله، ونادى تلميذا له اسمه الحافظ، وأمره بصنع الشاي، وهو الشاي الأحمر نيگرو، فأمره أن يصب كأسين أحدهما إلى الثلث والأخرى ملأى. قال: فظننت أنه يعطيني الملأى، فأعطاني الأخرى وشرب هو الملأى حتى لم يبق إلا نحو الثلث، فقرأ شيئا ونفث في الكأس وأعطانيها فأخذتها وشربتها وفعل ذلك في الكؤوس الأربعة؛ ثم صلوا العشاء وأمره به إلى محل ينام فيه.

ولما أصبحوا أخذوا ينتظرون الشيخ حتى أسفر الوقت جدا والتلاميذ فزعون يقولون: لم يقع قط أن أخّر الشيخ الوقت إلى هذا الوقت. ثم خرج الشيخ مسرعا وأحرم وقرأ في الأولى بالفجر والثانية ألم نشرح، ولما سلم أخرج من جيبه ورقة أعطاها له وقال له: اقرأ هذا، فهذا الذي أخرني عن الوقت اليوم. فقرأها وفيها دعوة وقال له: ردها إلي. وأعطاه ورقة أخرى، وقال له: اقرأها، فهذا الذي حملني على التأخير اليوم. فقرأها ثم قال له: في الأولى ما يساوي عبادة ألف سنة وفي الثانية عبادة مائة سنة وهذه الأمة أعمارها مابين ستين إلى السبعين، فمَن عَبَد الله منها هذه المدة كان حقا على الله أن يكرمه.

وقل لشيخك: "إن من عباد الله تعالى من يكون ما يجده يأتيه من الله بلا واسطة كما أن الأنبياء منهم من يأتيه الوحي منامًا، ومنهم من يكلمه الله تعالى بلا واسطة ومنهم ومنهم...". ثم أعطاه مخلاة فيها أربعون أوقية بيضاء، وقال له: اذهب بها واستعن بها في طريقك وحقي عليك أن تأتيني كل سنة وتبيت معي ليلة واحدة.

فلما رجع إلى شيخه وأخذ يخبره بقصته مع الشيخ قال له: لا تخبرني فإني أعرف كل شيء، وأخذ يخبره.

وقال له: إنما أردت أن أزيل عنك الريب، والآن اذهب إلى محلك. وأعطاه مركوبا ورحلا، ولما عرض عليه الفضة قال له: معاذ الله أن آخذ منك شيئا زودك به هذا الولي نفعنا الله ببركاتهم.

وكان قد قال له بعد صلاة العشاء: أنت تتعشى معي، فجاءت الأطعمة وقسمها بين الناس فلما تعشو أخذ الشيخ صرة من الكسكس اليابس وجعلها في إناء وصب عليها شيئا من الماء المحلى فأخذ منه قليلا وتعشى هو -أي ابن عبدم - منه.

ومنه ما أخبرني به الشريف الزينبي الصالح الشيخ الداه بن محمد الأ مين الداودي يوم الأحد موفى عشرين من شهر رجب سنة 1417هـ الموافق فاتح دسمبر 1996م بنواكشوط؛ أخبرني يومئذ أنه ابن خمس وتسعين سنة وأن والده كان من أوائل من أخذ الورد عن الولي الكامل المجاهد في سبيل الله تعالى الشريف الشيخ حماه الله.

ثم إنه أعطاه لأبنائه كلهم ماعدا الداه هذا، وكان أصغرهم قال له: أنت تركت لك التعلق بجميع أولياء الله تعالى. ثم إن الشيخ الداه مرض مرضا شديدا وهو في بلاد السودان الفرنسي – مالي – حاليا في بمكو، فأتاه أبوه في المنام وأمره بالذهاب إلى الشيخ أحمد بنبه. فذهب إلى داكار عاصمة السنغال وهناك وجد من دله على محل الشيخ أحمد بنبه، فذهب إليه في انجاريم، فلما وصل إليه ناداه باسمه واسم أبيه دون سابق معرفة، ومكث معه ما شاء الله أن يمكث ليالي وأمر بعض مريده أن يكتب له نظمه المسمى بـ"مطلب الشفاء" وأمر بقراءته صباحا ومساء كلما أصابه مرض...

ولم يغادر الشيخ الداه البلد حتى برئ من مرضه، وقبل أن يسافر قال له الشيخ: هل تأخذ الورد؟ فقال له: لا آخذ، ولكني محب في الله.

فقال له الشيخ: أنت نهاك والدك عن الأخذ عن المشائخ، والمحب في الله يزور جميع الصالحين وتناله بركاتهم، وأما التلميذ الذي أخذ عن شيخ معين، فلا ينبغي له تجاوز شيخه ذلك. ثم ودعه.

وأمر بعض المريدين أن يزودوه بشيء من المال، فرفض الشيخ الداه المال واكتفى بكسوة أخذها.

وأخبرني أنه رجع إليه مرة أخرى بعد سنة أو سنتين وأنه توفي على أثر ذلك رضي الله عنه.

وحكى علي البشير أن الشيخ أتاه الولي الشهير الشيخ محمد عبد الحي في انجاريم، وهو مسافر على الإبل؛ فقال له الشيخ لما أراد المسير: "سلم مني على بامبي". فلما وصل إلى بامبي توفي ودفن بها.

وأخبرني البشير عن والده وعن عمه المختار أن الشيخ العلامة الصالح الشريف أحمد بن الحسن كان يوما يماشي الشيخ، فإذا بالشيخ خطا خطوات في الهوى ثم رجع إلى الأرض وقال له: "أقول لك لولا السنة لما سكنت الأرض".

ومن كراماته ما ذكره الشيخ محمد بن الشيخ أحمد بن الحسن الشريف الحسيني في كتابه: "رحلة شيخنا الشيخ أحمد بنبه في غيبته البحرية".

قال: (ص26 وما بعدها):

كان مرة في بعض الجزر فحفروا له بئرا ضيقا وأوثقوه بالحبال، وأدخلوه فيها فرد لهم الحبال وقال: "أعطوني كتبي ومدادي". فتنازعوا في ذلك، فقال أحدهم: أرسلوها له فإنه ميت لا محالة. فأرسلوها وأغلقوا عليه فم البئر وذهبوا ومكثوا مدة لا يشكون أنه مات خلالها. فكشفوا الغطاء عنه، فنظر إليهم فرأوا عينيه فعلموا أنه حي فأدخلوا له الحبال، فجعل فيها كتبه وأمتعته ثم ردوها إليه فخرج سالما ثم رجع إلى حيث كان.

وفي بعض تلك الجزر أيضا أتاه أحدهم ومعه كلب، والشيخ إذ ذاك يكتب والقرطاس متفرق حوله فمد الكلب يده إلى قرطاس فقال له الشيخ: "أمسك كلبك عن قرطاسي". فخرج وأتى بكلاب كثيرة وأطلقها عليه، فأشار الشيخ بقلمه على الذي يليه منهما فالتهب الكلب نارا وفر مع الكلاب فاحترقت عن آخرها، وفر الكافر وبقي هو في عمله.

وفي بعضها أيضا وقد أخبرني بهذه القصة ملاي بص عن الشيخ أنه ذهب به حاكم تلك الجزيرة إلى حديقة فيها أسد جائع مجوع، ففتح باب الحديقة وأدخل الشيخ عليه.

فوقف الشيخ قليلا ينتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو واقف أمامه صلى الله عليه وسلم فلما نظر الأسد عيني رسول الله صلى الله عليه وسلم برك متواضعا ثم وثب من فوقهم واثبا وراء الحائط وافترس الحاكم وأربعة ممن معه.

فرأى ذلك بعض النصارى وهو في غرفة حولهم فضرب الأسد بالرصاص فمات فخاصمهم رب الأسد وقال إنه لم يفترس أحدا قبل ذلك واقتضاه منهم بأغلى قيمة... ورجع الشيخ من حيث جاء.

وأدخلوه مرة في بيت ممتلئ نملا، أعظم ما يكون من النمل لا يدخل عليه شيء إلا أكله. فلما دخل الشيخ صار النمل يتراكب بعضه على بعض حتى ترك للشيخ ما يسعه. ثم أتوه بعد ذلك فوجدوه سالما.

وكان ذات يوم يكتب فأطلقوا عليه بقرة أهلية ضاربة لا تطلق على شيء إلا وافترسته. فلما وثبت نحوه أشار إليها بيده فتوارت بالحجاب إلى الآن.

قال لي والده إنه سأله باختصار عنها فقال له: ما شأن البقرة؟

فقال له الشيخ: "جعلها الله حيث لا ترونها".

وقد بلغت هذه المحاولات التي تؤدي بحياة الشيخ كما عدها هو بنفسه مائتين وخمسا وثمانين محاولة عدد آيات سورة البقرة هـ.

وقال المؤلف أيضا في شأن الشيخ ص8:

أمر حاكم "اكنك" الكونگو الفرنسية أن ينقل إلى البرويل ومكث فيه عدة أشهر. وفي خلال تلك الأشهر ربطوه بشجرة، وقدموا له قائدا من قواد جندهم معه اثنا عشر جنديا بعد أن اجتمع كل من هناك ليشاهدوا ما يفعل به وأطلقوا عليه الرصاص في آن واحد؛ فلما انكشف الدخان إذا الثلاثة عشر خامدون، ورأى الجمع خلقا كثيرا لا قبل لهم به، فنكصوا على أعقابهم، وحل الشيخ من الشجرة ورجع إلى منزله وفي ذلك يقول:

وَهَبَ لِي الْوَهَّابُ فِي الثُّلاثا مَا يُخْجِلُ الْعَشْرَةَ وَالثَّلاثا

ويقول فيه أيضا:

أَجَارَنِيَ الْقَهَّارُ مِنْ جُمْلَةِ الْعِدَى وَخَانَتْهُمُ أَرْمَاحُهُمْ وَالْمَدَافِعُ

وفي خلال تلك الأشهر أيضا حفروا له حفرة عميقة، وأوقدوا فيها نارا وبسطوا على فمها بساطا من وقف عليه يهوي فيها، فدفعوه ومر بالبساط وتوارى عنهم، ثم بعد ذلك وجدوه في منزله سالما.

وفي ذلك يقول الشيخ:

رَدَمَ رَبِّي مَا عَدُوِّيَ حَفَرْ لِضَرَرِي وَصَانَنِي عَمَّنْ كَفَرْ

وقال لنا خليفته الثالث الشيخ عبد الأحد إنه لما وقع في الحفرة بادره أهل الملإ الأعلى، فقال لهم: "إن كنتم أرسلتم إليّ فذاك وإلا فدعوني وربي كما قال خليل الله إبراهيم عليه السلام".

ومكث في تلك الحفرة ما شاء الله، وألف فيها تآليف ثم أتت والدته جارة الله مريم بص وأخرجته وقالت له: ارجع إلى عملك.

وفي ذلك يقول عبد الله السالم الحسني:

نَارٌ تَأَجَّجُ هَلْ يُنْجِي الطَّرِيحَ بِهَا إلا مُنَجِّي خَلِيلِ اللهِ مِنْ نَارِهِ

ثم نقلوه من لبرويل إلى الانبرينيه، ومكث فيها خمس سنوات، ونبذوه تحت شجرة بإزاء نهر، فصنع عريشا وصار يعبد الله فيه، وصار الحاكم يجمع للشيخ راتبه فصار مائة وعشرين درهما، فصرها ثم ذهب بها إلى الشيخ ومدها إليه، فأخذ الشيخ الصرة وضرب بها جبهته، حتى سال دمه، فرجع الحاكم وطلب المحاكمة من الشيخ... فدعي الشيخ وأجاب، ودعي الحاكم فاختطف في الطريق، ولم يعثر له على أثر بعد.

وفي ذالك يقول الشيخ:

كَتَبْتُ فِي الْبَحْرِ أَنِّي لاَ أَمُدُّ يَدِي ... إِلَى النَّصَارَى عَبِيدِ الْمَاءِ وَالطِّينِ
يَدِي لِمُغْنٍ كَرِيمٍ نَافِعٍ صَمَدٍ ... لا لِلدَّرَاهِمِ تَأْتِي مِنْ سُلَيْطِينِ

ثم نقلوه من "لنبرينه" إلى "ماينبا" ومكث فيها نحو سنتين، وفي "ماينبا" ذهب به النصراني صاحب السفينة الذي قال لهم إنه سيكفيهم أمر الشيخ.

فاستعرض به البحر وأبعد فيه، وطرحه في جزيرة ليس بها أنيس، إلا الوحوش والسباع الضارية.

فلما طرحه هو وصنب لوب، ولم يجتمعا قبل ذلك في محل واحد، وإنما ينزلون صنب معهم والشيخ بمعزل عنهم.

فلما انقلب النصراني راجعا، كبر الشيخ وشرع في الصلاة، ومكث ساعتين يصلى وصنب في أشد الحزن والقلق.

فلما سلم الشيخ التفت إليه وهو يضحك، فقال صنب: أفي مثل هذه الحالة تضحك؟

فقال الشيخ: لو علمت ما أضحكني لعلمت أنه أمر عجيب وهو أني كنت أنا وأنت في جلف، وقلت: إن جلف لا يسعنا معا، وها أنا وأنت على جلد واحد، فقال صنب: اعف عني يا شيخ.

فقال الشيخ: لا تخف واجمع الأمتعة تكون أمامي على الجلد فانحنى الشيخ على الأمتعة، وقال لصنب: خذ بظهري ولا تفتح عينيك، فسمع صنب هدة عظيمة ففتح إحدى عينيه فعميت. فإذاهم بشاطئ البحر "ماينبا".

وفي هذه القصة يقول الشيخ:

وَمَنْ يُلْقِنِي فِي الْبَحْرِ رَوْماً لِغُرْبَتِي ... فَلِي مِنْ إِلهِي الرَّوْضُ فِي كُلِّ عَيْلَمِ

وفي هذا البحر يقول الشيخ:

لِيَ اشْهَدْ بِكَوْنِي عَبْدَ مَنْ يَغْفِرُ الذَّنْبَا ... وَكَوْنِي خديم الْمُصْطَفَى بَحْرَ مَايَنْبَا
وَلِي اشْهَدْ بِأَنِّي لاَ أُدَاهِنُ مُشْرِكاً ... خَلِيلاً حَبِيباً لِلَّذِي كَرَمَ الْجَنْبَا
وَأَنِّي خَلِيلٌ لِلْمُقَفَّى حَبِيبِهِ ... عَلَيْهِ سَلاَمَا مَنْ كَفَانِي بِهِ الْكِذْبَا

ثم أرسل الحاكم إلى قسيس كبير من أعلمهم... وبقي هو والقسيس والترجمان والشيخ، فمكثوا ساعتين في تلك الجلسة؛ فخرج الشيخ ورجع القسيس فسأله الحاكم، فقال له: هذا الرجل لا تنفعكم حيلة فيه ما دام متمسكا بدينه، فأعملوا له الحيلة لعله يقع في المعصية، ولا أنفع في ذلك من أن تأخذوا له امرأة من أجمل نسائكم وتدخلوها عليه.

ففعلوا ذلك وهو في بيت يكتب وقفلوا الباب وذهبوا بالمفتاح.

فلما كان من الغد أتوا فوجدوا الشيخ في مكانه الذي يكتب فيه، وما رأوا شيئا في البيت إلا قدحا مكفوءً، فقلبوه فإذا تحته ضفدع، فسألوا الشيخ، فلم يجبهم، وألحوا عليه، وأشار بالقلم الذي بيده وقال: ما معي في هذا البيت من ذي روح إلا هذه الضفدع.

فبإشارته انقلبت الضفدع امرأة، فإذا هي نائمة، فأيقظوها وخرجوا بها، فسألوها فقالت: ما عقلت شيئا منذ أدخلتموني حتى أيقظتموني.

وفي هذه المرأة والتي قبلها حين أردوا أن يفوته الوقت بإرسالها إليه كلما أتم وضوءه وهو في السفينة، ففي المرة الأخيرة أخذ جلد صلاته الذي يصلي عليه، وبسطه على البحر وكبر، فصار الجلد يسير بسير السفينة، حتى أتم صلاته ورجع إلى السفينة.

وفي ذلك يقول الشيخ:

عَلَّمَنِي الْعَلِيمُ عِنْدَ الزَّاخِرَاتْ مِمَّا يَشَاءُ وَكَفَانِي الْكَافِرَاتْ
لَمْ يَنْحُنِي عِنْدَ الْبُحُورِ الْمُغْرِقَاتْ دَاعٍ لِخَمْرٍ أَوْ دَوَاعِي الْفَاسِقَاتْ

فأرسلوا بالقصة إلى كبيرهم، فأصدر الأوامر أن ردوه إلى أهله، فرجع إلى داكار في شعبان سنة كسش، ومن داكار إلى اندر ثم... إلى گنار.

فِي الْغَيْبَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي حَبَا بِه الْبَيَاضِينَ الإِلْهُ مَنْ حَبَا

وفي تلك الغيبة الثانية أبرز ورده المأخوذ من الله بواسطة رسوله صلى الله عليه وسلم، خامس شوال عام أكسش، الذي سماه الشيخ عام شهدنا بكرم... إلخ كلامه.

ثم قال المؤلف في أواخر كتابه وعن هؤلاء السادة العلماء الثقات أخذت هذه الرحلة والكرامات، ثم عدّد العلماء الذين روى عنهم مشافهة، وذكر الكتب التي أخذ منها، ومن بينها مكتوب بخط الشيخ نفسه.

وذكر الكاتب السنغالي الشيخ عبد الله دي في كتابه المكتوب باللغة الفرنسية بعنوان "الجلاء إلى الگابون" على آثار الشيخ أحمد بنب، ذكر بعضا من الكرامات التي وقعت للشيخ في تلك الغربة، وتحرى في إثباتها تحريا شديدا، وفي تعيين المواضع التي وقعت فيها.

ذكر إرسال النصارى للشيخ إلى جزيرة نائية مخوفة، وتركهم له فيها هو وصنب لوب، وأنهما رجعا قبل رجوع السفينة التي أقلتهما. بذل المؤلف مجهودا كبيرا في تعيين موقع تلك الجزيرة ص75...

وذكر أيضا قصة محاولة النصارى قتل الشيخ بالرصاص، على أيدي ثلاثة عشر من جنودهم، وبحث بحثا فيه تحقيق كبير، عن كيفية القصة، وأورد مختلف الروايات وبعضها عن الشيخ نفسه، وعن من أخبرهم من شاهدوها أو شاركوا فيها، ورجح أن الجنود انهزموا ولكنهم لم يموتوا في الحين والساعة.

ورجح الكاتب أيضا، أن الواقعة وقعت في مكان إقامة الشيخ في محبسه على الشاطئ، بعيدا عن أعين الناس؛ لأن النصارى كانوا يريدون أن يجعلوا من الحادثة اغتيالا أو نحو ذلك.

قلت: ويؤيد ذلك ما أخبرني العلامة العارف بالله تعالى القاضي محمد بن أدشاغ اعمر اليعقوبي، أنه أخبره الشيخ نفسه بأنه أخذه النصارى في إحدى المرات التي سجنوه فيها،

وأجْلَوْهُ عن بلده، ثم إنهم أرسلوا معه بعضهم ومعه بعض الجنود، ليعدموه رميا بالرصاص، فقال نظما يتوسل فيه إلى الله تعالى بأهل بدر رضي الله عنهم، ومنه قوله:

يَا أَهْلَ بَدْرٍ سَارِعُوا بِالنَّصْرِ ... عَلَى عِدَى الإِسْلامِ فِي ذَا الْعَصْرِ
أَجَبْتُمُ الدَّاعِيَ مُسْرِعِينَا ... إِلَى الْمُجَاهَدَةِ خَاشِعِينَا
هَدَّدَ رَبُّنَا بِكُمْ قَبْلُ اللَّعِينْ ... وَبَاءَ بِالضُّرِ وَدَبَّهُ الْمُعِينْ

فلم يشعر النصارى وجنودهم، حتى أحاط بهم جيش من الفرسان شاهرين سلاحهم، ففزع النصارى وذهلوا عما كانوا فيه، فخر الشيخ ساجدا، وسجد من كان حوله من النصارى وجنودهم جزعا وذهولا، ونجاه الله منهم ببركة أهل بدر رضي الله عنهم، فقال الشيخ في ذلك قصيدة منها:

صَلاحِي بِفَضْلِ اللهِ ذِي اللَّوْحِ وَالْقَلَمْ ... بِهِ جَفَّتِ الأَقْلامُ لَمْ تَنْحُنِي ظُلْمْ
فَدَانِي إِلَهِي بِالَّذِي كَيْدُهُ مَضَى ... وَمَا أَمَّنِي سُوءٌ وَمَا أَمَّنِي أَلَمْ

إلى أن يقول:

إِلَى نَصْرِنَا قَدْ سَارَعُوا بِخُيُولِهِمْ ... وَخَافَ الْعِدَى مِنْهُمْ وَمَالُوا إِلَى السَّلَمْ

وذكر الشيخ عبد الله أيضا كرامة الشيخ في وضعه سجادته على البحر والصلاة عليها، لما حاول النصارى منعه من الصلاة في السفينة، وذكر من كراماته أن النصارى إنما أجلوه إلى تلك البلاد ليموت بسبب ما فيها من البعوض والأمراض المؤذية.

وكانوا إذا أرادوا قتل أحد المواطنين، ممن يخشون جانبه، ولا يستطيعون تبرير قتله أمام الناس لأنه لم يرتكب جريمة يستحق عليها القتل أرسلوه إلى تلك الجزيرة الموبوءة فلا يمكث سنة حتى يموت.

وأما الشيخ فإنه مكث فيها خمس سنوات ولم يصب بأي ضرر ولا أذى بل حفظه الله تعالى حتى عاد سليما معافى.

وذكر الشيخ عبد الله أنه لم يره أحد يأكل في تلك المدة كلها وكان أحيانا يأتيه الطعام من عند أهله في السنغال فيوزعه على صبيان تلك الناحية.

وإذا أعطاه النصارى الراتب الشهري الذي يعطونه للمساجين، فإما أن يتصدق به على الضعفاء، وإما أن يرفض أخذه من عند سجانه.

فسبحان الله من حفظه منهم.

وذكر نجل الشيخ وهو الصالح المكتوم محمد الأمين بارا وكان لا يتكلم وقال الشيخ فيه: "لو تكلم لسمعتم العجب".

قال في كتابه في غيبة الشيخ الذي عنوانه: "كتاب دليل الحائر في غيبة الشيخ في الجزائر"، وقد ألفه في حياة والده.

إن قصة البقرة التي أطلقت على الشيخ كانت عند دخوله السفينة التي أقلته من داكار إلى منفاه، وذكر أنها طارت وكأن لها أجنحة.

وذكر قصة احتيالهم عليه حتى سقط في البئر التي فرشوا فوقها الفراش، وجعلوا عليها منبرا، فلما سقط فيها الشيخ فرحوا فرحا شديدا وردموا عليه البئر، ثم بعد ذلك وجدوه في محله الذي أتى منه.

وذكر أبيات الشيخ سعد أبيه المتقدم ذكرها والتي مطلعها:

مَعَادِنُهُ أَجْلَتْهُ مِنْهَا النَّصَارَى ...

وأخبرني الأخ الصالح صاحب الأسرار والعلوم/ أحمد بن محمذ بن بابه بن محمودا بن محض بابه بن اعبيد، أن العلامة الولي محمد بن أدشاغ اعمر، أخبره أنه قدم مرة على الشيخ الخديم بانجاريم، ووجده في عزلة عن الناس منذ زمن ووجد كثيرا من البيضان يرجون خروجه من العزلة لقضاء حوائجهم، وثم كثير من بني ديمان من بينهم أحمد بن بيدَحْ، أخو المختار بن بيدَحْ وكان صالحا، ومنهم بابه بن محمودا العالم الشاعر المشهور.

وعند محمد بن أدشاغ اعمر مصحفان مخطوطان أحدهما بخط يده هو، والآخر بخط والده محمد بن أدشاغ اعمر، وكان وليا، وكانا -أي محمد- وأبوه مريدين للشيخ.

وبينما هو -أي محمد- في جماعة، إذ قال بعض الحاضرين: هذا المصحف خطه غير جيد؟

ثم إنهم تحدثوا في مثلث الغزالي فقال محمد بن أدشاغ اعمر فيه كلاما، فقال له الشخص المذكور: لماذا تتكلم عن المثلث وأنت لا تعرفه، وخطك غير جيد وأنت تقدمه للشيخ فإنك لجرئ.

فقال له بابه بن محمودا: لماذا تخاطبه بمثل هذا الخطاب، فكف عنه أذاك، فإن خطه جيد وخط والده جيد، وليس هنا من يضاهيهما في الخط، وأما معرفته للمثلث فلا مجال للكلام فيها. فسكت الناس ثم إن الشيخ لم يلبث أن قطع عزلته وأرسل إلى الثلاثة المذكورين، وأخذ المصفحين، وقال: "هذا خط جيد وصحيح، ثم قال لذلك الشخص: ألا تعرف محمد بن أتشاغ أعمر، يجب أن تتعارفا وتتحابا".

فخرجا من عنده وبعد سويعة التفت ذلك الشخص إلى محمد وقال له: ما أعظم مقامك، إني لم أكن أراك قبل الآن! إن مقامك لعظيم، ولا أدري كيف تحملك هذه الربوة.

ثم بعد أيام جاء الشيخ البشير بن الشيخ الخديم، وأحد مريدي الشيخ الخاصين ومعهما رجل، قالا إنه سرق أموال اليتامى، فكأن الشيخ لم يصدق أولا أن ذلك الرجل سرق. فأتيا عليه بالشهود، فاقترب منه الشيخ ووضع يده على رأسه أو تفل عليه وهو يتلوا الآية: (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا)، فصار ذلك الرجل يحكي كل سرقاته الماضية، والشيخ يتعجب ويتأخر عنه، والرجل يدنو منه والشيخ يقول: اللهم استرنا بسترك الجميل. فقال محمد: إن هذا هو الحكمة الحقيقية لا غيرها.

وأخبرني الفتى الصالح بينوگ بن محمد اليدالي بن محمودا بن محمذ بن المختار بن محمد الكريم الديماني ثم الفاضلي أن محمد بن محمذ، أخا محمودا، هو شيخ الشيخ أحمد بنبه، وكان وليا مكاشفا، وكان محمودا أيضا شيخا للشيخ وكانت بينه وبينه علاقة روحية.

ذات مرة قدم محمودا ببنيه الثلاثة وهم على فرس على الترتيب الآتي: على ظهر الفرس المختار، ثم ناصر الدين، ثم محمد اليدالي. فضحك الشيخ وقال: ستكون وفياتهم على هذا الترتيب. وأما ترتيب ميلادهم فالأكبر المختار ويليه محمد اليدالي ثم ناصر الدين.

وقال له الشيخ: هذا لي وهو محمد اليدالي، وهذا لك وهو ناصر الدين، وهذا لنفسه -يعنى المختار-. أما محمد اليدالي فهو من أهل الحقيقة، ولا ينظر إلى الدنيا. وأما المختار فأمره أن يحفر حفرة ويجعل فيها "داروكة" ويخرجها وذلك نهاية ترقيته.

والداروكة هي جذع شجرة يكون بمثابة الوتد، ثم كان المختار معروفا بالكرامات والكشوف وعاش محمد اليدالي ثلاثا وتسعين سنة.

ولما قدم الشيخ إلى الصرصارة في موريتانيا، في تغريب النصارى له إليها أتته طوائف من البيضان، وجاء ليلة محمذ القاضي بن العاقل، فسلم عليه وكان محمذ عنده نظم في التاريخ، قال فيه:

فِيهِ أَتَى أَحْمَدٌ بَنْبَ الْعَامَا وَفِيهِ غَارَ السَّيْلُ عَنْ شَمَامَا

وكان لم ينته منه ولا يعرف أحد أمره.

فسلم محمذ وقال للشيخ: هل عرفتموني؟ فقال الشيخ: نعم لقد ذكرتني في نظمك. مكاشفا له بذلك. هكذا اخبرني بينوگ.

وأخبرني غيره، أنه أتى معه أيضا المختار بن محمودا وزودهما بما صلح به أمرهما. أما محمذ فأعطاه القضاء، وأما المختار فأعطاه السر والله أعلم.

وأخبرني بينوگ عن والده، أنه كان ليلة في آخر الليل بانجاريم، في محل نائما مع جماعة من البيضان، فرأى في النوم أن تيكيت الشيخ فيها سرير مرتفع عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وبحذائه سرير دونه في الارتفاع، وعليه الشيخ، والشيخ يصحح الحديث على النبي صلى الله عليه وسلم.

فلم يلبث محمد اليدالي أن أتاه تلميذ للشيخ وقال له: الشيخ يريدك. ولم يكن من عادته استدعاؤه في ذلك الوقت، فأتاه فاستقبله الشيخ وهو يضحك، وقال له: "رؤياك صحيحة، فهذا السرير كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وكنت أنا على هذا الآخر". وأراه شيئا من الحديث مكتوبا كان يصححه عليه صلى الله عليه وسلم.
وأخبرني أنه لم يكن يلتفت، وذات مرة كان النصارى يضربون المدفع الكبير عند ظهره، فلم يلتفت فسأله فقال: "أنا في مقام لا يحتمل الالتفات".
وأخبرني بينوگ عن والده أنه نقل عنه مرات أنه شريف يقولها عن نفسه. ومرة قال لتلاميذه: "اصنعوا الشاي لبني ديمان، فإنهم يحبون الشاي"، فقالوا له: إن الشاي نفد، فهز رأسه، وقال: (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ) فلم يتم الآية حتى وقفت سيارة كميون، وقالوا له: إنها محملة بالشاي من داكار، ومن عند التلميذ الفلاني. فقال لهم: إذن فاصنعوا الشاي للبيضان.

وأخبرني أن آخر ما وقع له مع الشيخ قبل وفاة الشيخ بعام ونصف، أو عامين أن جاء البياضين بكثرة، ولهم حوائج ومهام في الشيخ وكانوا إذا أتى المطر إلى بول أو سنغال، يمرض البيضان ولا توافقهم الأرض.

فجاءت من المطر دفعة ثم أمسك المطر مدة شهرين أو نحو ذلك، وجاء المزارعون يشتكون الجفاف إلى الشيخ، فقال الشيخ: لا أدري ما بال المطر هذا العام؟ فقال له محمد اليدالي: سبب عدم مجيئها أني أنا دعوت الله أن لا يأتي حتى يقضي البياضين حوائجهم. فضحك

الشيخ، وقال للتلاميذ: بنو ديمان يذهبون لقضاء حوائجهم غدا، والقبائل الأخرى بعدهم. فلم يمض أسبوعان حتى لم يبق بيضاني إلا ذهب، وقد فتحت المخازن وأعطى الناس ما يريدون.

ثم قال الشيخ لليدالي: متى يأتي المطر؟ فقال له: يأتي ليلة الأربعاء، ولا يبقى موضع إلا امتلأ من الماء.

فجاء المطر، ولما كان من آخر النهار، جاء المزارعون يشتكون من كثرة الماء. ثم إن الشيخ ودع اليدالي وقال له: "منذ الآن لا تقول شيئا إلا كان، فأكثر أو أقلل".

فكان قوله بمنزلة (كُنْ)، فذهب اليدالي، ولم يرجع إلى الشيخ بعدها حتى مات رضي الله عنهما وعنا بهما.

وأخبره أيضا -أي والده- أن البيضان كانت لهم عادة، إذا مر الشيخ أن يسرعوا نحوه للسلام عليه. وذات مرة أراد الشيخ أن يخرج لقضاء حاجة، فقال له اليدالي: إن الناس مجتمعة بقرب الباب فسيسارعون إليكم، فقال له: لن يقوم لي منهم أحد. فمر الشيخ أمامهم ولم يقم منهم أحد، فكلما أراد أحدهم أن يقوم لا يستطيع ذلك، فقضى حاجته ورجع، فلما دخل أشار إليهم وهو يبتسم: تعالوا؛ فأتوه.

وأخبره أنه كان مرة معه، فأتاه محمد بن هدار والزمن زمن شدة؛ فقال له: من هذا؟ فقال اليدالي: هذا محمد بن هدار، فنقط الشيخ نقطتين في الأرض، وقال له: هذه الدنيا وهذه الآخرة، فاختر أيهما شئت. فقال له: إني أختار الآخرة، ولكن العيال سيفزع إذا أتيته بالآخرة، فضحك الشيخ، وقال له: الدنيا والآخرة عند الله. وأمَر التلاميذ أن يعطوه شيئا من الخنط وغيره، وأعطاه نحو مائة من الفضة البيضاء، ولم يمسها، بل قال: إن الدنيا عندي نجس. فوقف محمد، وقال:

شَكَرَ أَحْمَدُ بَنْبَ لَشَاعْ ... يُوجَبْ شَكَرَ أَحْمَدُ بَنْبَ
وَاتَمَّ الأَ صَنْبَ فَاكْرَاعْ ... شَكَرَ أَحْمَدُ بَنْبَ صَنْبَ

فضحك الشيخ ضحكا كثيرا مما قال.
ومما وقع لمحمد اليدالي بعد وفاة الشيخ، أنه مرة ذهب مع رفقة إلى "دگانة" وعند الرفقة العلك، واليدالي ليس له بضاعة، فباعوا بضاعتهم، وتأهبوا للرواح من "دكانه" فلقيه صديق له يسمى البشير سك بن أبي المقداد، وكان يمثل شركة مورل التجارية، وكان قد أعطى منها مالا لأحد الناس، من قبيلة إداد شاغ تشمشة، وفقده مدة تسع سنوات، وسمع أنه توفي، فقضى البشير المال للشركة. ولما لقي محمد اليدالي قال له: إن لي إليك حاجة، فإن قضيتها لي لم تتأخر عن رفقتك في رواحها يمازحه. وأخبره بخبر الرجل، وطلب منه الاستكشاف عن حقيقته، فقال له: سأنظر بعد الظهر، فصلى في مسجد للبشير قرب الشركة، وتخلف عن الناس في المسجد.
قال: فنظرت إلى جهة الشمال والمشرق، فرأيت الحوضين وتگانت وغير ذلك من البلاد، ولم أر الرجل، وكنت أعرفه؛ ثم نظرت إلى الجهة الأخرى، فرأيت الرجل في سين سالم، وعنده خمسة أشداد من الخنط، وعنده مائة وأربعة عشر كبشا وستون ألفا من الفضة، وإنه سيأتي إلى "دگانه" في شهر. فقص الخبر على البشير، فكتب البشير التفاصيل والتاريخ، وقال له: إذا أتى الرجل فسأرسل إليك، فلما تم الشهر دخل الرجل على البشير، وأتاه بما أخبره به اليدالي، فكتب إليه أن جميع ما أخبر به صحيح، واستقدمه إليه.

وكان البشير لما أخبره اليدالي بالأمر، قضى له حوائجه واشترى له جملا حمله عليه.
وأخبرني البشير عن والده وعن جماعة من إدواد، أن حمود بن الهاشمي من إدواد، وهو مريد للشيخ، أتاه مرة وقد ابيض كفاه من البرص، فاشتكاه إليه، فأخذ الشيخ أصبعه، ودور به على البياض في اليدين، وقال له: "هذا فعل الله ولن يزداد فيك"؛ فبقي فيه ولم يزدد بعد ذلك.
ومن أموره معه أنه كان دائما يعطيه مبلغا من المال إذا أراد أن يسافر عنه إلا مرة في آخر عمره أتاه يريد السفر، فقال له الشيخ: (وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ الأُولَى) وكررها. فذهب حمود إلى والدته وقال لها: إن الشيخ نعى إلي نفسي. ولم يعش بعد ذلك إلا يومين أو نحو ذلك.
وقد وقع للشيخ رضي الله عنه كثيرا أن يعطي أناسا شيئا من المال، فإذا ألحوا عليه في الزيادة، أعطاهم ما يريدون، ولكن تلك الزيادة تكون وبالا عليهم.
فقد أتاه أحد الأعيان من الشعراء فأعطاه مالا، فلما رأى أنه استقله، أعطاه مالا كثيرا، وقال له: "خذها جافلة". فذهب الرجل واشترى ناقة ذلولا من السوق، وركبها عائدا إلى أهله، فلما بلغ موضعا من الطريق نزل عنها لحاجة، فنفرت الناقة بما عليها من متاعه، ولم يعثر لها على خبر بعد ذلك. فرجع إلى أهله خائبا نادما، وقال لهم: لقد أخبرني الشيخ بذلك، ولكني لم أفهم كلامه.
وأخبرني العالم الصالح الثقة عبد الله بن سيد أحمد بن اسمه الديماني، أنه أخبره العالم الثقة باب بن ببكر من أولاد بوميجه من أولاد ديمان، أن ابن عمه محمذ بن احميد، وكان عالما كبيرا مشهورا بجودة الخط، جاء إلى الشيخ أحمد بنبه في بلاد البيضان، حين غربه النصارى إليها، ليزوره، فقال له الشيخ: "سمعت أن خطك جيد وأود أن تكتب لي مصحفا"، فأجابه محمذ إلى ذلك.
فبنى له الشيخ خيمة ووضع له فيها آلات نقل المصحف جميعا، على أن يبدأ الكتابة من الغد. فبات محمذ تلك الليلة في الخيمة، فرأى أن ثعبانا يعضه في الرأس؛ فلما أصبح إذا برسول الشيخ يطلبه، فلما جاءه ودعه وأمره بالذهاب إلى أهله ولم يبين له السبب، فذهب محمذ إلى أهله وأتاهم في ذلك اليوم فوجد ابنه أحمد قد لدغته حية في رأسه، ولم يستطع أحد دواءه، فداواه محمذ حتى برئ. قال عبد الله: وقد أدركت أنا احمد هذا.
قال عبد الله: فذهبت إلى والدي فقصصت عليه هذه القصة، وقصة المختار بن حامد في لقائه الأول للشيخ؛ وقد أخبرني بها، فقال لي الوالد: سبحان الله يا عبد الله، أنت لا تزال هنا! يعني تعجب من كشف الشيخ، لقد عودني الشيخ كلما أتيته في حاجة أن يخبرني بما في ضميري ويجيبني عليه دون أن أسأله. وكان ديدني معه أن آتيه ولا أخبره بشيء مما أتيت من أجله، فيكون هو الذي يخبرني به رضي الله عنه.
وأخبرني السيد محمد اليدالي بن محمد بن محمذ بن سهله أن جده محمذ كان تلميذا للشيخ أحمد بنبه، وكان يأتيه دائما في زيارات متعددة، وقد وخطه الشيب ولم يولد له، ثم تحول إلى قبيلة زنبت، وتزوج بامرأة من أولاد ابيير اسمها فاطمة بنت حماد، وأخوالها زنبت، فولد له منها ابن واحد، فجاء محمذ إلى الشيخ وفي نفسه أن ابنه وحيد، وأنه يخاف عليه من حمل السلاح، وعدم التعلم، فقال له الشيخ دون أن يعرب له عما في ضميره: إن ما تخاف منه لن يقع منه شيء، أما أنت فستولد لك بنت بعد هذا الولد، وأما هو فسيكون له بنون متعددون.
وأعطاه لوحا وقدحا، وقال له: اكتب له في هذا اللوح واسقه في هذا القدح. فكان إذا تكلم له الناس في شأن ولده يقول لهم: لا أخاف عليه بعد ما أخبرني به الشيخ، فصار من أهل العلم، وولد له أولاد متعددون، وصاروا من أهل العلم.
واليدالي الذي أخبرني بهذا هو أحد أبناء أبنائه، وهو تلميذ للشيخ كما كان أبوه وجده، وهم من ذرية محمد اليدالي الولي العلامة المشهور.
وأخبرني البشير بن أدشاغ اعمر أن المختار بن حامد في رحلته إلى الشيخ قد أعانه عمه باركل في أبيات قالها، فلما أنشدها للشيخ أشار له الشيخ إلى ذلك، وهي:

مَا ضَلَّ مَنْ ظَلَّ نَحْوَ الشَّيْخِ يَرْتَحِلُ ... تَخْدِي بِهِ يَعْمَلاتٌ نَحْوَهُ ذُلُلُ
حَتَّى يَحُطَّ بِبَابِ الشَّيْخِ أَرْحُلَهُ ... حَيْثُ التُّقَى وَالنَّقَى وَالْعِلْمُ وَالْعَمَلُ
وَالْمَكْرُمَاتُ وَحَيْثُ الدِّينُ مُنْتَصِرٌ ... وَالْخَيْرُ مُتَّصِلٌ وَالْغَيْرُ مُنْفَصِلُ
حَيْثُ الْبُدُورُ بَنُو الشَّيْخِ الْخَدِيمِ أَلاَ مِن ... هُمُ الْبُدُورُ بُدُورُ الدِّينِ لاَ أَفَلُوا
نُورِهِ اقْتَبَسُوا مَا مِنْ حُلًى لَبِسُوا ... كَالشَّمْسِ لِلْبَدْرِ مِنْ أَنْوَارِهَا حُلَلُ
أُولُو تُقًى ونَقًى أُولُو نَدًى وَجَدًى ... أُولُو صَفًا وَوَفًا أُولُو أُولُو وَأُولُو
يا رُبَّ عِفْدٍ بِهِ جَادُوا وَمَا بَخِلُوا ... وَرُبَّ عِلْمٍ أَجَابُوا عَنْهُ إِذْ سُئِلُوا

وذكر الشيخ البشير في "المنن" (ج 2 ص88) قال:
وحكى عليٌّ معاصره بكه چنگ، وهو اليوم شيخ قبيلة عافيه، أنه فُطِمَ معه في يوم واحد، وكانا في مكتب عم شيخنا، وكان الشيخ منقطعا عن الناس منذ صباه، وكان معلمنا يقول لنا: اقرأوا ألواحكم بجد، ولكن جانبوا سرين بنب، لا يأته أحد منكم تحت شجرته، فإنه ليس منكم.
ثم تنفس الشيخ العافي الصعداء، وقال: والله إنه لعجيب! تذكرت يوما ونحن غلامان، خرجنا من قرية انيُورَ وهي قرية مَبَهْ في سالم، فما مضينا إلا قليلا، حتى وقف وقال: كأني بالناس في سين وقد التحموا في القتال، وكانت المسافة بين الموضعين ثلاثة أيام.
فلما رجعوا أخبروا بوقوع القتال في ذلك الوقت، وقعة محمودُ اندر خليفة مَبَهْ الفاتح.
وذكر الشيخ البشير أيضا في ذلك الكتاب (ص: 127) أن أميرا كان يظهر بغضه، وكان وزيره وأخته يغريانه به فانتقم الله منهم. أما الوزير فقد آل به الحال إلى أن مر به الشيخ مرة وهو على حافة بئر يسقي بقره الذي لا راعي له غيره، وهو في ثياب رثة، فبادر إلى تقبيل يد الشيخ. وأما الأميرة فقد رأيتها -يقول المؤلف- تتكفف بأبواب المريدين، وأسلمت على يد بعضهم. وأما الأمير فقد نكب.
وقال أيضا (ص: 89، ج: 1): حكى علي حمزة جَخَتَ أنه تذكر يوما يعرف والده وقد أتى الشيخ زائرا، فسمعته يقول للوالد: إني أتهيأ لسفر بعيد في هذا الأوان، فقال له الوالد: لعله جلف الذي سمعت، فقال: لا وليس في جنس ذلك، هو سفر. وكان هذا إيذانا بالغيبة البحرية.
وحكى علي غير واحد من المريدين أنه من كرهه لازدحامهم عليه، أتى للمسجد وتبادروا لفرش سجادته حتى كادوا يقتتلون عليه، فسكنهم، ثم قال: "لأضعن سجادتي حيث لا يقربني أحد يعين في فراشها إن شاء الله". وكان ذلك إشارة إلى منفاه البحري.
وذكر أيضا (ج: 1 ص: 132) أن مريده الكبير آدم كي حين أتاه يبايعه، قال له: "إن كنت تريد ذلك فشمر عن الأهل والمال، وأعرض عن الدنيا، وأقبل إلى الله والدار الآخرة". ففعل.
وما لازمه زمنا يسيرا حتى انشرح صدره فانجذب إلى الله.
وهو ممن كوشف له في العوالم.
كان كثيرا ما يظهر ما أخفى عنه، ويزجر تلامذته عن الغيبة، وهم بعيدون عنه وكثيرا ما يرسل لأحدهم ينهاه عن أمر كان لابسه خفية عن الناس، ويخبرهم بما ادخروا وما أكلوا في بيوتهم.
وكثيرا ما يظهر مكائد نصبت له عن ظهر غيب.

وكان موحى له في شفاء الأسقام، والأوجاع بمجرد اللمس والمس.

حكى علي بعض أهل كجور أن صنب لوب الأمير حين أسلم نفسه إلى الفرنسة في اندر، وأخذوا سلاحه وخيله وهو في الجزيرة لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، دُلَّ على هذا الشيخ -أي المريد آدم كي-، ليتوجه في استخلاصه بالدعاء، فقال لهم آدم: ذلك هين على الله، ائتوني بالتراب من كجور. فأتوا به وبات معه، فلما أصبح قال لهم: تم أمركم فقد حصل مرغوبكم، فسترجعون بالإمارة من عند هذه الدولة. فما مضت أيام حتى صالحتهم الدولة، ونصبوه أميرا. فقيل له: بم حصلت لهم على هذا؟ فقال: ما من شيء إلا أني وضعت التراب أمامي

واستحضرت باطن شيخنا رضي الله عنه، مخاطبا له: يا شيخنا رد هؤلاء إلى أرضهم بالإمارة، فكان ما كان، ولم أشك في قضاء الحاجة ببركته.
وفي (ص: 286، ج: 1): قال: حكى علي أحد المريدين أنه كان معه في اجتماعهم في بيت المدير في اندر، حين أرسل إليهم المدير ليفتك بهم بعد تغريب الشيخ رضي الله عنه، فلما أخذوا -أي هو وأعوانه- مجالسهم، غشيهم رعب شديد تأثرت منه وجوههم، فما لبث المدير أن صرفهم بكل عجلة من غير أن يسألهم عن شيء؛ بل دفعهم وشتمهم وقال: ابعدوا عني وارجعوا إلى ما شئتم فلستم بشيء. فتعجبوا من هذه التدابير المتناقضة والآراء المتعاكسة.
وأخبر بعض الحضور أنه رأى صورة شيخنا رضي الله عنه في ثياب بيض يطوف بمريديه مكاشفا بذلك، فلم يشك أن الرعب العارض الذي أذهل الحكام، إنما كان من تلك اللمة المشرفة المباركة.
ومن كراماته رضي الله عنه ما حكاه في "المنح المسكية في الخوارق البكية" (ص: 11) لمريده وكاتب سره الشيخ محمد الأمين جوب، قال: ومنها ما حكاه علينا مشافهة أنه احتبس ذات يوم عن الخدمة أيام خدمته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، في الغيبة الغراء البحرية لوجع عم بدنه، فقال في مناجاته: {{أللهم إني أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما علمت، فها أنا حبسني عنها هذا المرض، فاصرفه عني إلى من يدعو مع الله إلها آخر}} -أو ما ذلك معناه-؛ قال: وكان بجواره واحد من وزرائهم يستغرق في الضحك مع أصحابه، فسمعته في الحين يئن أنينا. قال الشيخ: "فكأنما نشطت من عقال، فعلمت أن المرض نقل إليه فقمت إلى الخدمة كما شئت فلله الحمد".هـ.
وقال مريده العلامة الشاعر محمد عبد الله بن عبيد الرحمن في "النفحات المسكية" أنه سمع هذه الحكاية منه.
وفي الصفحة (26) من "المنح المسكية": ومنها ما أخبرني به أخي في الله وفي الشيخ الخليل الحبيب حبَّلَّ بن أبَّيْ الديماني أولا، ثم سيد محمد بن أفلواط ثانيا، ثم صاحب القصة ثالثا عبد الودود بن سيد محمود الحاجي.
وذلك أن الشيخ كان في بعض الأيام في المباركة انجربل يبني مسجدا من بعض مساجده الصغار حول القصر، فأمر السيد عبد الودود بأن يقوم لهم -أي البناءين- المحراب.
قال سيد محمد: فرأيت عبد الودود أسرع للامتثال، فقلت في نفسي: يا ليته اعتذر ويكل الأمر إلى الشيخ خوفا من أن يخطئ في بناء الشيخ، فما لبث أن خطه ورجع إلي يتعجب، فكأنما كوشف له عما في ضميري، وأنا أستحيي أن أقول له شيئا، فقال لي: يا أخي لما وقفت مختبرا لاجتهادي لأخط المحراب، كشف الله الحجاب بيني وبين البيت، فعاينت البيت نفسه فخططت كما شئت مواجها له، ثم احتجب.

هذا من فضل الله، كرامة لهذا الولي ولمريده الصادق، وكان عبد الودود قد حج.
ومنها قوله ليلة السادس والعشرين من جمادى الثانية عام جمسش، وكانت ليلة خميس وهو جالس يأمر بنقل محرابه إلى الشمال قليلا: "هذا المحل الذي نقل إليه هو المقابل لوسط الكعبة، والمحراب الأول مقابل له ولكن هذا أوسط". هذا بلفظه بلا واسطة بل سماعا منه بعد العشاء الأخيرة.(ص: 27).
ومنها ما كان رضي الله عنه يحكي لنا من ظهور أهل بدر للعسكر الذين كانوا معه في بيت واحد، وهم مائتان وسبعون رجلا. وذلك أنهم كانوا يقومون كل ليلة عند انصداع الفجر إلى موضع اجتماعهم للتدريب.
وقضى الله ذات ليلة أنهم خرجوا قبل الفجر، فلما حصلوا في البقعة واصطفوا؛ ظهر لهم جند عظيم على خيولهم وأرحامهم وسيوفهم.
وكل واحد منهم عمامته مرسلة على كتفيه وعرنينه كأصبع. فلما عاينوهم طاشت عقولهم وكادوا يطيرون خوفا.

إلا أن قائدهم تثبت وتجلد وأشار إليهم بالسكون والتأني، وصار يرجع بهم القهقرى إلى أن بلغ بهم أول القرية، والجند على حالهم، فطلع الفجر، فغاب الجند، فهدد القائد جيشه وأوعد من أفشى السر بالقتل، وفشا الخبر بين أهل الدولة إلا أنهم كتموه عن العامة خوفا من أمر الشيخ.
والمظنون أن هذه الواقعة أواخر رمضان جيسش في جزيرة كبك، ولعل كبك ولبرول اسمان مترادفان... وفي هذه الواقعة يقول الشيخ:

إِلَى نَحْوِنَا قَدْ سَارَعُوا بِخُيُولِهِمْ وَخَافَ الْعِدَى مِنْهُمْ وَمَالُوا إِلَى السَّلَمْ

(في ص: 33): ومنها ما حكاه لي أبو بكر جوف المريد الصادق المجذوب أنه في بعض سياحته توجه يريد انجربل دار الشيخ الخديم، فسار في بعض الأيام بين قريتين متباعدتين عشية؛ فإذا هو بسبع بلغ غاية في العظم، وثب عليه فصرخ بملء فيه: يا شيخ! قال: فما تم كلامي حتى سمعت ضربة مهولة بدبوس من حديد أعمله قوي الساعد... فسمعت قائلا ولم أر شخصه: دونك كان يريد بك قتلا فقتل. فالتفت فإذا هو ساقط يتشحط في دمه... أما أنا فما أصابني كبير أمر إلا ضريبة ضعفت منكبي وأدمته. فعلمت أن هذه إغاثة من الله بالشيخ.

وفي (ص: 36): ومنها عن سيد محمد - يعني محمد بن ءافلواط الحاج الحاجي- وكان قد ذكره في قصة قبل هذه مباشرة أنه كان خرج إلى زيارة الشيخ في "سهوة الماء" فأرسل معه السيد عبد الله بن سيد محمود الحاجي السلام إلى الشيخ. فقال له الشيخ: أعرفه، أليس هو صاحب الحزب الفلاني؟.

قال سيد محمد: وما كان لي من علم بالحزب، فأجبته: بلا أدري، فلما رجعت إلى السيد وأخبرته بالحزب دهش، وقال: سبحان الله هذا الحزب ليس عند غيري في موضعي هذا، ولم أخبر به أحدا قط. وكان لم يلق الشيخ قط.

ومنها عن سيد محمد، عن صاحب الحزب أيضا أنه -أي صاحب الحزب- رأى الشيخ في منامه كأنه يؤاكله وسط الخيمة التي هو فيها، فأصبحت الخيمة يفوح منها المسك فوحا لم يعهد فيها قبل ذلك، فأصبح أهلها يتعجبون وأهل الحي كذلك ودام زمنا.هـ.

ومنها أيضا عن سيد محمد أن السيد عبد الله بن مختارنا أرسل معه ورقة مضمونها عدة أسئلة جلها فيما بينهم وبين النصارى، كالهجرة عنهم وكالزكاة التي لهم، وكأخذ السلاح ودفع الصائل، ونحو ذلك.

قال سيد محمد: فشق ذلك عليَّ جدا، لما بين الشيخ والمريدين من الهيبة والحياء، مع ما بلغني من إكثار البياضين عليه الأسئلة، ولا محيد لي عن حملها لأن السيد عبد الله جليل عندي، ومن أشياخي أيضا؛ فتوكلت على الله وحملتها على نية إن رأيت لها فرصة انتهزتها وإلا رددتها كحالها... فمكثت ما شاء الله، ولم أتذكرها إلى أن بدأني الشيخ بسؤال: هل معك كتاب؟ قلت: نعم... وكان معي تفسير الجلالين وتائية السلوك، ومجموع فيه الورق، فأتيت بالثلاثة، وقلت: هي هدية لك، فقال: نعم ولكن أبقها عندك تنظر فيها، فعندنا مثلها، إنما أردتها الآن لغرض.

قال سيد محمد: كل ذلك ولم أتذكر الورقة، ففتح ينظر في تائية السلوك ويتعجب ويقول: كلام القوم.

فلم يلبث أن سأل عن الوقت، فأجبت بدخوله؛ فقال لي: امش وأذن. فذهبت وأذنت، وشرعت أصلي رواتب العصر الأربع. فإذا برسوله يدعوني، فأتيته ووجدته يكتب ويضحك، ويقول: الورقة لمن؟ فنظرت فإذا هي بيده اليسرى، وهو يكتب الجواب، فأدهشني ما رأيت. فقلت: عبد الله. وتمم الجواب، وأرانيه فإذا هو أجاب الأسئلة كلها إلا واحدا.

قال سيد محمد: وسكوته عن ذلك السؤال أعجب عندي مما وقع. وذلك أن السائل كتب فيها ما وقع بيننا وبين ابن عم لنا من بعض نزاع في مال. كنت شاورت السائل في أمره، فقال: أنظرني ولا تحدث فيه شيئا سدا للذريعة، وكتب فيه للشيخ.

وكان من قضاء الله أني لما خرجت من عند المشاور، طالبت الرجل بالمال بعض المطالبة، فلان ودفعه بلا كره ولا شيء، ولم يعلم السائل بذلك، فلما نظرت أجوبة الشيخ ولم يتعرض له ازداد تعجبي.

(ص: 40): ومنها عن سيد محمد أيضا، أن الشيخ عبد الله بن مختارنا المتقدم، عرضت له ورقة فيها كلام بعض الفقهاء يظن أنه ابن عرضون يتكلم في من أراد التوبة النصوح وسلوك سبيل الرشاد، أن الأفضل له أن يتوجه إلى مشايخ التعليم يأخذ منهم ويقتدي بهم، ولا يتوجه إلى المشائخ الذين ينتسبون إلى التصوف؛ لأن التربية في هذا الزمن لم تكن، أو نحو ذلك.

وطلب مني أن أحملها إلى الشيخ، ليعلمنا هل ذلك مطلقا أم لا.

فاعتذرت له حياء من الشيخ، فلما وصلت إلى الشيخ ومكثت ما شاء الله، أرسل لي الشيخ ذات يوم فأتيته ومكنني من ورقة بخط يمينه مجاوبا فيها تلك الورقة المتروكة حرفا بحرف من غير سبق كلام مني فيها ولا سؤال. فتعجبت كثيرا ومضيت نحو الشيخ عبد الله، وقلت: هات الورقة فأتى بها فأخرجت له ورقة الشيخ وقابلناهما فتعجب عبد الله كثيرا وازداد اعتقادا في الشيخ.

ومنها ما أخبرني به الثقة الفاضل، سيدي محمد الفاضل بن شيخنا الخديم رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا به ءامين، أن المطر احتبس في ذلك الخريف احتباسا فادحا، حتى كادت الناس تقنط، وأيقنوا بهلاك الزرع والضرع، قال السيد المذكور: فعند ذلك أرسل لي العم أحمد بن سعيد المعروف بأحمد دَمْبَ يُحَمِّلُني الشكوى إلى الشيخ فاعتذرت له بأن الشيخ قريب العهد بالقدوم فسكت. ثم لما اشتدت الحال، وعِيلَ صبرُه، عاودني بالكلام وألح، فذهبت نحو الضريح الشريف، وزرت، وقلت: أيها الشيخ أنت الذي نرجوك بربك لكل حال، ونعدك لكل ملمة، وأنت الآن تعلم ما بنا. أو نحو ذلك من العبارات.

قال: فو الله ما أتممت كلامي وخرجت، حتى وجدت السحب متراكمة، فانحل وكاؤها، وكأنها

أفواه القرب في الحال، ودامت الأمطار ليلا ونهارا أسبوعا على أسبوع، حتى اشتد بالناس الحصار، وأيقنوا بهلاك الزرع وخافوا على أنفسهم، فعند ذلك ذهبت نحو الضريح الشريف، وزرت، وقلت: أيها الشيخ أنت الذي نرجوك بربك لكل حال وأنت أنت؛ بعبارات لائقة لا طول فيها.

فوالله كانت السماء متراكمة السحب، فانكشف من حينه، وصحت السماء وانقطع المطر، وعاش الزرع والضرع، وحمد الناس، وكان عام خصب ببركة الشيخ رضي الله عنه.

ومنها (ص: 47): ما أخبرني به محمد حواء بن محمد مختار انجاي، أن الشيخ أخبره سنة بمسش بأن عمره على عدد آي سورة الزمر، اثنتان وسبعون، وعلامة صدق ذلك موت صالح كبير بيضاني، فمات الشيخ سيديا في تلك الأيام. انتهى ما نقلته من "المنح المسكية".

وقوله إن عمره 72 لعله يعني به أنه في تلك السنة كان ابن 72، وهذا يؤيد ما تقدم من أن مولده سنة 1270.

ومن كراماته ما ذكره الشيخ عبد الله دي في كتابه بالفرنسية "الجلاء إلى الگابون" (ص 65):

فقد ذكر أن الحاكم الفرنسي لكلرك جاء إلى بلدة جول، لاعتقال الشيخ، ولكن الشيخ صرف وجهه عن الحاكم، وقرأ البسملة خمسين مرة. فما كان من الحاكم إلا أن انسحب بسرعة، وعلى أطراف الأصابع.

وسافر الشيخ بحرية إلى مدينة اندر، حيث كان على الحاكم أن يأتي به أسيرا.

ومن عرف كيف أخذ المستعمرون أحد أفراد المقاومة قبل ذلك بيوم، وشدوا وثاقه، وأسلموه إلى الرئيس التقليدي، عرف أن نجاة الشيخ أحمد بنبه من هذا الحاكم أعجوبة من الأعاجيب.

وقال الشيخ عبد الله دي (ص66): على ظهر الباخرة التي كانت تقل الشيخ إلى مقابر الجنوب، حيث مات كثير من نبلاء المقاومة، بتدبير جائر من المستعمر، فإن الشيخ أحمد بنبه لم يتخل قط عن تعلقه بربه عز وجل وبدعائه وشكره لله تعلى ومديحه لمخدومه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وتمجيده للدين الإسلامي.
وهكذا فإنه بسط سجادته على أمواج المحيط، وصلى عليها بمرأى ومسمع من البحارة الذين على ظهر السفينة.

وأخبرني العلامة السني الصالح ابا بن الحسين بن محمد بن حيمود الجكني، عن خاله وابن عمه عبد الله بن أبي بن حيمود وكان عالما صاحب محضرة، عن العلامة الورع الشيخ أحمد بن أحمذي الحسني وكان محبا للشيخ أحمد بنبه وكان يأتيه في كل رمضان، وأنه سأل الشيخ عما قيل إن النصارى غربوه مرة في زمن منفاه، ومنعوه الطعام والشراب مدة سبعة عشر

يوما، وإنه كان يأتيه طعام أهله على بعدهم، فقال له: إن ذلك غير صحيح، ولكن الله أعطاه قوة الطعام والشراب تلك المدة.

وقد بشر الشيخ أحمد بنبه الشيخ أحمد بن أحمذي بشارات كثيرة جميلة منها أنه قال له: أنت مثل الصحابة؛ أو كلاما نحو ذلك، وقال له: أنت وأخوك لكما شأن عظيم عند الله عز وجل. وكان له عشرة إخوة حفاظ فكان هو يرى أن أخاه الذي عناه الشيخ هو الشيخ محمد عبد الله العلامة المشهور.

ومنها: أن الشيخ أحمد بنبه دخل على جماعة من البيضان من ضيوفه ومن نقلة المصاحف له، ومعهم الشيخ أحمد بن أحمذي، ومع الشيخ أحمد بنبه قدر من المال غير قليل، ففرقه في تلك الجماعة، ولم يعط منه شيئا للشيخ أحمد بن أحمذي.

فلما ذهب الشيخ أحمد بنبه عنهم، قالوا فيما بينهم: لماذا لم يعط شيئا لهذا الرجل الصالح العابد العالم؟

فكأن الشيخ أحمد بنبه كوشف بما قالوا، فأتاهم وقال لهم: إن هذا الرجل -يعني الشيخ أحمد بن أحمذي- لا يريد الدنيا ولا تراد له.

ولنمسك القلم فإن كرامات الشيخ ومزاياه وصفاته السنية لا يحيط بها ولا يحصيها إلا من أكرمه بها منذ صباه في كرامة تلو كرامة وعبادة مستمرة من غير فتور، وبذل للمال وجهاد في سبيل الله، ومعارف ربانية، وهداية إلى المولى سبحانه وتعلى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن اطلع على حياة هذا الشيخ، أيقن بدون توقف أنه كان غوث زمانه وقطب أقطابه. وقد شهد له بذلك عدد من الناس وصرح هو نفسه بذلك عدة مرات.

فممن شهد له بذلك العارف بالله تعالى الشيخ حم بن حم بن عثمان التنواجيوي القادري الطريقة، أخبرني تلميذه الشريف العارف بالله تعالى الشيخ سدات بن أوجه التنواجيوي أنه قال له إن الشيخ أحمد بنبه هو قطب زمانه.

وشهد له بذلك العلامة الصالح لكبيد بن دب التندغي، تلميذ الشيخ الولي الكامل محمذ فال بن متالي:

غَوْثُ الْوَرَى أَحْمَدُ الْبَكِّيُّ وَارِثُ أَسْـ ـرَارِ الْعُلُومِ الْجَلِيَّاتِ الْخَفِيَّاتِ
مَنْ جَدَّدَ الدِّينَ إِذْ كَادَتْ تُطَمِّسُهُ أَهْلُ الْهَوَى وَرَدِيَّاتِ السَّجِيَّاتِ

وقد تقدمت شهادة العالم الصالح العلوي التجاني محمد الأمين بن أحمد بن بديِّ: "إنه يتيمة دهره..." الخ؛ وذلك قريب من التصريح بغوثيته رضي الله عنهما وعنا بهما.

وشهد له به الشيخ الصالح ابن المشايخ، العلامة القاضي محمذ بن محمد فال بن أحمد بن العاقل الديماني في بيته السابق الذي فيه:

مَن مِّثْلُهُ فِي الْغَرْبِ لَيْسَ يُوجَدُ ....

وذكر في "النفحات المسكية" (ص40) ما يلي: لقي الشيخ العالم الولي الشيخ باب بن محمود بن حمدي فرحب به وعظم قدره، ولما رأى ما رأى من مجاهدته نفسه قال له: ارفق بنفسك فإنك تكلفها ما لا تطيق؛ وأعطاه لبنا فيه سكر، فأبى عنه، وقال له: ما ذقت مثل هذا

قط. وكان ذلك الولي من أكابر الأولياء، صاحب فيوضات وكشف، وكان يثني على هذا الشيخ الثناء الجميل ويقول: ذلك السوداني هو قطب زمانه.هـ.

وأما تصريحه هو بأنه احتل مرتبة الغوثية العظمى فمنه ما حكاه تلميذه وكاتب سره الشيخ محمد الأمين جوب في "المنح المسكية" قال: ومن أجلاء الشهداء العلامة التابع الشيخ عبد ال التامكلي الديماني قال وصدق وأحسن:

أَلاَ مِلْ إِلَى دَارِ السَّلامِ وَطُوبَى ... إِذَا خِفْتَ مِن رَّيْبِ الزَّمَانِ خُطُوبَا
لِنَظْفَرَ مِنْ غَوْثِ الزَّمَانِ بِنَظْرَةٍ ... تُنَالُ بِهَا حُسْنُ الْمَآبِ وَطُوبَى

وهذان البيتان حفظتهما من الشيخ، سألني: هل تعلم ببيتي عبد ال؟ قلت: لا، فأنشدهما فحفظتهما بإنشاده، وتحققت أنه يشير إلي بتصديقه في قوله: "غوث الزمان".هـ.

وقال في نظم له:

فَقُلْتُ وَالْفُؤَادُ مِنِّي طَابَا ... وَقُدْتَ لِي مَا لَمْ تَرَ الأَقْطَابَا

وقال الشيخ في قصيدة له:

مُحَمَّدٌ الْمُخْتَارُ بَاهَى بِيَ الْوَرَى ... عَلَيْهِ سَلامَا خَيْرِ مَنْ جَادَ بِالْحَلْي
زِمَامُ وَرَى عَصْرِي لَدَى اللهِ فِي يَدِي ... وَمَا رُمْتُهُ مِن مَّالِكِي انْقَادَ لِلأَتْي
زَمَامُ ذَوِي الإِسْلامِ فِيهَا فَمَنْ أَبَى ... مُكُوثِيَ فِي الدُّنْيَا أَذِلَّ مَعَ الْجِزْي

والأتي: الإدراك. الجِزْي: بالكسر جمع جزية، وفيه إشارة إلى قوله تعالى: (حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ).

وقال الشيخ أيضا في مكتوب له أورده الشيخ محمد الأمين في "المنح المسكية": "وزدتني فضلا منك أن جعلتني خديمه وخليفته في دينه وأمته..." إلخ

وقال أيضا في نظم له:

إِلَيَّ قَادَ اللهُ مَا لَمْ يَكُنِ ... وَلا يَكُونُ أَبَدًا لِمُمْكِنِ

إلى غير ذلك من شهادات الكبراء له بالقطبية العظمى، ومن تصريحاته هو بذلك.

وقد تقدم قوله إنه كان يظن أن نور النبي صلى اله عليه وسلم لا يمكن أن يكون كله في شخص واحد من أمته حتى شاهده في شخص واحد؛ وقال الشيخ سيد أحمد بن اسمه أنه شاهد ذلك في نفسه، وهذا خاص بغوث الزمان. وقد تقدم أن معنى كون النور المشرف كله فيه إنما هو على ما تطيقه ذوات البشر.

فنسأله تعالى بجاه رسوله صلى الله عليه وسلم وجاه أوليائه الكرام وجاه شيخنا غوث الزمان وشيخ الإسلام الشيخ أحمد بنبه خديم رسول الله صلى الله عليه أن يبدل أحوالنا السيئة إلى أحسن الأحوال، ويرزقنا سعادة الدارين مع كفاية همهما، ويرزقنا حسن الخاتمة، والنظر إلى وجهه الكريم، ودخول جنته في مقعد صدق عند مليك مقتدر إنه سميع مجيب.

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

من كرامات الشيخ سيد أحمد بن اسمه الديماني وهو من كبار مريدي الشيخ الخديم رضي الله عنه وعنا به.

أخبرني ابنه العالم الصالح الثقة دَاهِ (اسمه عبد الله) أنه أخذ منه ورد الشيخ الخديم وسكن في البادية فكان يجد مشقة في تلاوة الورد آخر النهار، لما كان يعاني من مشقة القيام بما يجب في حق المواشي وإقراء بعض الأطفال، فكان يقوم بالورد أول النهار وكان يقتصر في آخر النهار على الاستغفار (70)، ثم إنه قدم على والده فبعد أن أنهى السلام وإعطاء الأبناء التفت إليه الشيخ وهو يضحك وقال له بلا مقدمات: "مهما كان، فلا ينبغي أن تعجز عن الاستغفار". مكاشفة له بما وقع له.

وأخبرني أنهم كانوا في ناحية تيرس أو ما يليها ومعهم حي من تندغه فأرادوا العبور إلى ناحية القبلة مارين ببير أبي النشاب، فأرسلوا أمامهم راوية على قلوص وعليها قرب تملأها من الماء وتأتيهم بها في المنزل الجديد.

وكان على القلوص هو وأخوه الأكبر محمد بن البخاري بن الحافظ الدليمي، وهو أخوه لأمه، فبينما هما سائران إذ نفرت القلوص ورمتهما عن ظهرها وجميع الأمتعة ورجعت على أثرها جافلة، فقال له أخوه: اجلس عند هذه الشجرة والأمتعة ولا تغادرها وإلا أكلتك الضباع.

ورجع الأخ على أثر القلوص وجاء بها بعد ساعة فشدا عليها برحل وركبا وذهبا إلى البير، وملأ القرب فلما ذهبا عن البير، قال له أخوه: يا أخي لقد رأيت اليوم شيئا عجبا، فبعد أن غادرتك في طلب الناقة الشاردة سرت على أثرها حتى فقدت رؤيتها حتى صرت في حيرة وعزمت على الرجوع إليك، ثم إني رأيت زائلة من الإبل على قمة أحد الكثبان، فقلت في نفسي: لعلها ناقتي؛ فسرت نحوها فلما اقتربت منها عرفتها؛ وإذا رجل واقف أمامها فلما أتيتها وجدت عندها الشيخ سيد أحمد فأخذت زمامها، وقال لي الشيخ: هل أمسكت الزمام؟ فقلت له: نعم.

قال عبد الله: وقد سألت الشيخ مرات عن هذه القصة، فكان دائما يأتي بالكلام دون أن يجيبني تسترا منه وتواضعا.

قال عبد الله:

وأذكر مرة أنه أرسل إلي من السنغال أن أنتظره في مدينة المذرذرة بجمل ليسير عليه إلى محل الخيام في البادية، وكنا حينئذ في ناحية ءامكرث، فذهبت بجمل إلى المذرذرة وأقمت أياما أنتظر الشيخ، وكنت دائما آتي بالجمل فأعقله في ناحية من المدينة، وفي الصباح أذهب به إلى المرعى وأقيده وأتركه حتى المساء فآتي به.

وقدم الشيخ ومكثنا يومين أو ثلاثة في التهيؤ للسفر، ثم إني ذهبت يوما على عادتي لآتي بالجمل، فوجدت قيده مقطوعا، وسرت على أثره حتى يَئِسْتُ منه ورجعت بعد المغرب، فأخبرته بالخبر.

وكان معنا أخو الشيخ وكانت فيه دعابة، فقال: إن كان ما يحكى عن الشيخ -أي من الولاية- حقا يصبح الجمل هنا. فتعشينا وصنعنا الشاي، وخرجت من الباب فرأيت زائلة، فاقتربت منها لأعرف حقيقتها فوجدت الجمل، فرجعت وأخذت الخطام والقيد وجعلتهما فيه ثم أخبرت الشيخ، فقال: الحمد الله.

وأخبرني أنه أخبره أحد تلامذة الشيخ من السينغاليين من سكان اندر (سين لويس)، ويسمى أحْمَدُ سِيلا أنه كان موظفا بسيطا في شركة تسمى بيرساك، قال: فرأيت الشيخ يمشي فتذكرت مشية الشيخ الخديم وكنت أدركته، فقلت للشيخ سيد أحمد: إني أطلب منك أن تقيل عندي؛ ففعل ثم توطدت بيننا المعرفة، فقلت له يوما: يا شيخ ادع الله لأجد دار سكنى فإن جل راتبي يذهب في أجرة المنزل الذي أسكن.

فبينما أنا يوما سائر معه، إذ وفق أمام نافذة وقال: يبدو لي أن هذه الدار ستكون هي دارك. فعجبت كثيرا من ذلك لأني أعرف مالك الدار وثبات قدمه في وطنه ولكني سكتت ثم رجعت بعد أن ودعت الشيخ إلى حيث كنا، ووفقت طويلا أتعجب.

وبعد أيام قلائل توفي صاحب تلك الدار وأراد بنوه بيعها. فقال لهم أحد الأهل: هذه الدار ينبغي أن لا تباع إلا لفلان فإنه منا وإذا قدم أحدنا إلى هذه المدينة يمكنه النزول عنده فيها.

فبينما أنا في محل عملي إذ أتاني ذلك الشخص ومعه ابن المتوفى وعرضا علي شراء الدار، فقلت لهما: ما أحوجني إلى ذلك، ولكني لا أستطيع، والدار تباع بثمانين ألف أوقية، أي أربعمائة ألف فرنك إفريقي وأنا ليس عندي الآن سوى عشرين ألف فرنك. فقالا: لا بأس سنأخذ منك ثمنها مقسطا ونأخذه قيمة؛ فقبلت ولم يمض نحو شهرين حتى صارت الدار لي.

ثم إني بعد ذلك ركبتني ديون كثيرة، وقالت المحكمة إنها ستأخذ الدار لتبيعها؛ فذهبت إلى الشيخ وأخبرته، فقال لي: دارك لا تباع أبدا. فلم تبعها المحكمة ولا أزال أسكنها إلى الآن.

وقد توفي المرحوم أحمد سيلا ولا يزال أبناؤه يسكنون تلك الدار إلى الآن.

وأخبرني عبد الله أيضا أنه أخبره رجل سينغالي من تلاميذ الشيخ سيد أحمد يسمى الحسن دوب أنه كان طالبا فرأى الشيخ عند أحد المعارف من تلاميذ الشيخ الخديم، قال: فقلت له أنا وطالب آخر معي: يا شيخ ادع الله لنا لننجح فدعا لهما، وقال لهما: أنتما ناجحان إن شاء الله تعلى.

قال: ففعلنا ذلك الامتحان وسقطنا ثم إنا لقينا الشيخ في ذلك المحل الذي كنا لقيناه فيه فاستحيينا منه لاعتقادنا أن ما وعدنا به لم يقع.

ثم إني تشجعت وقلت له: يا شيخ إنا لم ننجح، فقال لي: بل أنتما ناجحان إن شاء الله تعلى. فسكتنا.

ثم إن أحد كبار رجال التعليم قدم البلد وألغى سقوطنا من ذلك الامتحان وقال إنه يكفي في النجاح عملنا الآخر فيه فنجحنا.

وأخبرني عبد الله أيضا أنه أخبره أحد الوزراء السنغاليين السابقين أنه كان عاطلا عن العمل فجاء إلى الشيخ وأخبره، فقال له: إني كنت كتبت كتاب رقية لأحد الناس فلم يأتني فهاكه. قال: فأخذته وعلقته وذهبت إلى داكار من فوري فعينت وزيرا.

وأخبرني عبد الله أيضا أنهم كانوا في البادية في محل كثير الذئاب وكان عندهم نحو الأربعين من صغار الغنم وكانوا يرعونها ويأتون بها مع المساء خوفا عليها من السباع؛ وذات يوم توانى هو وأخوه في طلبها حتى فات وقت الطلب، فأخبر الشيخ بذلك.

فكان من فضل الله وقضائه أنهم وجدوها من الغد لم يعدُ المخلب على أي منها.

وقد وقعت لي أنا معه حكاية فيها كشف عجيب وذلك أني لما عزمت على أخذ الورد منه، قال لي بعض أهل البطالة إنه ليس صريحا في بني ديمان وإنما هو دخيل فيهم وإن ذرية ولي الله تعلى أحمد بزيد لا ينبغي أن يأخذوا الطريقة إلا عن من كان من ذرية أحمد بزيد، فلم أتأثر بقولهم وذهبت إليه في اندر لآخذ منه الطريقة.

فأخذ يحدثني بأحاديث مختلفة لم أنتبه أولا لترابطها. ثم إنه أخذ يحدثني بنسبه إلى ديمان وببعض تاريخ القبيلة.

وتنبهت في آخر الحكاية إلى أن ذلك كشف، فقلت في نفسي: بقيت مسألة الانتساب إلى أحمد بزيد. فلما انتهى من ذلك الحديث سكت قليلا ثم قال لي: إن أحمد بزيد جده لأمه وأخذ ينتسب حتى وصل إليه.

فعلمت أن ذلك كشف صحيح.

وكنت قبل ذلك بأعوام عدة أتيته أزوره في اندر فقال لي: إنه لا بد أن يعطيني ورد الشيخ الخديم؛ فاستحييت من التصريح برفضه وأظهرت الموافقة، فقال لي: لعلك لا تريده!

فقلت: وكيف!، فقال لي: ما يقع في خاطر الإنسان قد يقع في خاطر الذي بجنبه. فسكت عنه.

التقاريظ:

الأديب المشارك المختار بن محمدا بن حامد بن محنض باب بن اعبيد الديمانى في تقريظ كتاب: "كرامات الشيخ أحمد بنبه خديم رسول الله صلى الله عليه وسلم" بقلم الشيخ الدكتور/ محمد بن أحمد مسكه بن العتيق:

كتاب في كرامات الخديم ... شفاء سقام ذي القلب السقيم
يفصل مجملا ويزيل لبسا ... ويظهر مضمر النهج القويم
محمد نجل أحمد مسك فيه ... فيهدي للصراط المستقيم
بأسلوب حديث حزه في ... مفاصل ذات مضمون قديم
جزاه الله بالإحسان عما ... أشار إليه من شأن عظيم
وما من خدمة لجناب طه ... تأسى فيه بالشيخ الخديم
به تستنهض الهمم اللواتي ... تطلعها إلى كرم الكريم
عن الفاني الخسيس لها عدول ... إلى الباقي النفيس من النعيم
وأبقاه لنصرة خير دين ... يرد دعاويَ العادي المليم
وصد عظائم الشبه اللواتي ... تجر لمرتع الشرك الوخيم
فذكر مئاثر الأقطاب فيه ... صريح الذب عن ذاك الحريم

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الشاعر العالم الصالح أحمد يعقوب بن محمذ فالا بن سيد إبراهيم:

أيطربني إذا ما الشعر غَنَّى ... به قيس وليلاه الأغَنَّا
تُغَنِّي بالمزامير ابْتِهَاجًا ... سقاه الشوق بالتطريب رَنَّا
كتابُ محمدٍ في العلم شمس ... تحن على الخديم به تغنَّى
كتاب محمد بالمسك وسما ... عن الشيخ الخديم أعزُّ فنا
كتاب محمد بالحق نطقا ... عن الشيخ الخديم الغوث ثنى
كتاب محمد في العزو جمعا ... عن الشيخ الخديم الحِبِّ بَنَّا
خِصالا في الخديم لها شهود ... مصابيح إذا ما الليل جنَّا
كتاب في رجال العلم أعلى ... لهم فَضْلا من الرَّحمن مَنَّا
فمنهم يوسف النبهاني عدل ... مجيدٌ ماجدٌ ممن تسنَّى
قصيدا فانجريم حوى علوما ... وطوبى للخديم هُنَا وَهَنَّا
وكم بالمدح قال له صوابا ... مصيبا بارع في الشعر مِنَّا
شناقيط العلوم وهم بدور ... وكل مِن حلاه الفن قنَّى

الفهرست

مقدمة المؤلف.....2
مقدمة: في ثبوت كرامات الأولياء.....3
ذكر الخضر عليه السلام:.....11
حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل:.....11
حديث الثلاثة الذين تكلموا في المهد وقصة جريج:.....12
بقرة تتكلم:.....12
بعض من كرامات الصحابة وكشوفاتهم رضوان الله عليهم:.....14
ولنعد لذكر بعض الكرامات:.....22
الباب الأول.....39
في حياة الشيخ رضي الله عنه.....39
مناوأة الشيخ للنصارى الفرنسيين:.....41
نبذة من أخلاقه الزكية رضي الله عنه:.....42
الباب الثاني في.....53
شهادات مشايخ عصره وعلمائه له
بالفضل والولاية.....53
الباب الثالث في كرامات الشيخ.....64
من كرامات الشيخ سيد أحمد بن اسمه الديماني
وهو من كبار مريدي الشيخ الخديم رضي الله عنه وعنا به.....89
التقاريظ:.....92
الفهرست.....93